سلسلة الأبحاث الإسلاميّة

الجفوة المفتعلة

بين العلم والدين

محمّد علي يوسف

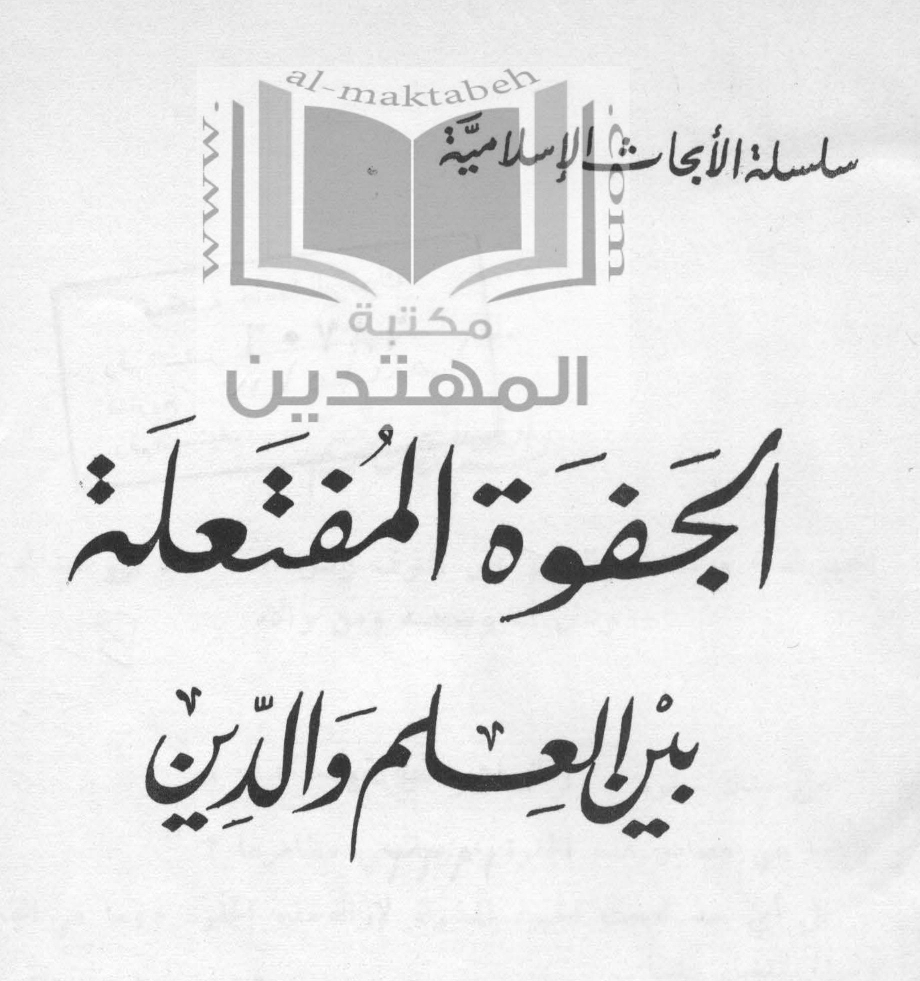
منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

٢١٢



الجفوة المفتعلة
بين العلم والدين

سلسلة الأبحاث الإسلاميّة



الجفوة المفتعلة

بين العلم والدين

محمد علي يوسف

•

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

١٩٦٦



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على اشرف رسل الله ، محمد بن عبدالله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه

هل هناك جفوة ، ولو مفتعلة ، بين العلم والدين ؟

ما هي مصادر هذه الجفوة ، وما هي مظاهرها ؟

الى أي حد نجحت الجهود المبذولة لإزالة هذه الجفوة ، وما هي انجع وسيلة للقضاء عليها ..

* * *

اما ان هناك جفوة بين العلم والدين فهذا ما لا يشك فيه احد من أهل النظر والفكر ..

واما ان هذه الجفوة مفتعلة فهذا ما لا ينكره الا مكابر أو دَعِيٌّ على العلم والمعرفة ..

اما مصادر هذه الجفوة فتتعدد بتعدد المسائل التي نجم عنها خلاف – ولو صوري – بين العلم والدين ، كنظرية التطور حين تنفي – او حين

يُظنُّ انها تنفي – وجود الله ، او حين تختلف – او حين يظن انها تختلف – مع الدين في بعض التفاصيل ، وككروية الارض ودورانها مما قال به العلم ، وناقض به الدين – فيما يُظنّ على أقل تقدير .. وكالسموات السبع ، والايام الستة الى غير ذلك . مما ستجد اكثره ان شاء الله في هذه السلسلة ..

ولا شك ان هنالك جهوداً مضنية بذلت لإزالة هذه الجفوة في الشرق والغرب على السواء ، وان كان طابعها في الشرق لا يختلف عن طابعها في الغرب ..

ففي الغرب كان الصدام بين الدين والعلم ، – اذا استثنينا مسألة وجود الله – اشبه بالصدام بين الحق والباطل ، لذلك كان همُّ الحادبين على الدين في الغرب ان يحققوا نوعاً من « التعايش السلمي » بين العلم والدين ، على النحو الذي يريدون به تحقيق التعايش السلمي بين الكتلتين الشرقية والغربية ، وغير خاف ان التعايش بين الكتلتين « الشرقية والغربية » في المحيط الدولي العام ، لم يتحقق التحقق التام حتى اليوم ، وان ما تحقق منه ، لم يكن نتيجة لطبيعة المبادىء التي تدين بها كلتا الكتلتين ، وانما نتيجة عوامل اخرى لا دخل لها في طبيعة الخلاف بين الكتلتين .. وهذه الصورة نفسها تنطبق على الخلاف بين العلم والدين في الغرب – اذا استثنينا موضوع وجود الله عز وجل ..

اما في الشرق المسلم فالأمر مختلف كل الاختلاف .. فليس هناك صدام – حقيقي – بين الاسلام والعلم ، وليست هناك شقة .. لذلك نرى ان الجهود في الشرق المسلم ترمي لإزالة الشقة الوهمية بين العلم والدين ، لا إلى أنصافِ الحلول ، ولا الى أي نوع من التعايش السلمي ، فالدين من الله ، والله هو الحق كما اسمى نفسه تعالى ، ولا يصدر عن الحق إلا حق ، وما صح من العلم ، فهو حق ، ولا يجافي الحق نفسه ..

فلا جفوة إذن بين الدين الحق ، والعلم الحق بطبيعة الحال ؛

على ان هنالك عاملا مشتركاً في الصراع بين العلم والدين في الشرق والغرب ، وذلك هو وجود الله عز وجل ، ولما آلت الكلمة في تحقيق هذه المسألة الى العلم ، وآلت دولة العلم الى الغرب ، رجع الشرق الى الغرب يستمد منه « الترياق » المضاد لسموم انكار وجود الله عز وجل ، ذلك الانكار المغلف بغلاف العلم ، المنبني على أساسه ، المستمد من « نظرياته » .. واصبح الشرق الذي كان استاذ الغرب في الروحانيات تلميذاً للغرب يأخذ عنه اصول الايمان والالحاد باسم « العلم » الذي آلت الكلمة في الايمان والالحاد اليه ..

ونحن نخدع انفسنا لو تجاهلنا ان « الثقافة » الغربية قد اقتحمت علينا كل الميادين ، ونخدع انفسنا اذا اعتبرناها كلها خيراً لا شرّ فيه ، ونخدع الحق ــ والحق لا يخدع ــ اذا اعتبرناها كلها شراً لا خير فيه ، ونخدع انفسنا ونخدع الحق معاً اذا اعتبرنا شرها مما لا يؤبه له ، او اذا اعتبرنا اننا اعددنا العدة الكافية لمقاومته والتغلب عليه ..

فاذا أردنا القضاء على الجفوة بين العلم والدين ، فلا بُدّ ان نقتحم عليها اكبر حصونها ، وأعتى قلاعها ، وهي مناهج التعليم في المدارس الثانوية خاصة .

وتقع المسئولية الاولى والاخيرة في ذلك على منهاج الدين .

فما لم يكن منهاج الدين بمنزلة الرقيب على هذه المناهج ، يتعقب كل منهاج آخر ، ويَسُدّ كل ثغرة من ثغرات هذه المناهج تندس منها سموم الالحاد ، وتتأكد بها عوامل الجفوة بين العلم والدين ..

ما لم يكن منهاج الدين الترياق الفعال المضاد لكل الآفات التي تصطحب فروع العلوم المختلفة باسم « الحرية » و « الموضوعية » وغير

هذين من الالفاظ الجوفاء ، والشعارات المزيفة ، التي تحيل الحق باطلا ، والباطل حقا ..

ما لم يكن الغرض الاساسي من المناهج الدينية ـ بالثانويات خاصة ـ هو تحري مواطن الخطر ، ومكامن الالغام فيما يدرسه الطالب من المواد الاخرى ـ كنظرية التطور في العلوم ، والحريات العامة في التاريخ ـ الثورة الفرنسية خاصة ! ـ ودوران الارض او كرويتها في الجغرافيا الخ الخ ..

ما لم يكن منهاج الدين الحارس الامين اليقظ الذي يُعدُّ العدة لكل ما يُغيرُ من جيوش الالحاد التي تتسرب الى عقول الطلبة من محيطهم « الثقافي » العام فيدحض عامل « المصادفة » في الخلق والايجاد ، وعامل « الشر » في العدل الإلهي والتدبير ، الخ الخ ..

ما لم تخرج مناهج الدين عن هذه « الانعزالية » التي ارادها لها الاستعمار قديماً ، وارادتها لنفسها بعد القضاء على الاستعمار ! ، وما لم تتعاون مناهج الدين ، مع المناهج التعليمية الاخرى التعاون الذي يدرأ الشرور ويسمع صوت الدين في كل مسألة ذات بال من مسائل المناهج .

وما لم تمد مناهج الدين الطالب ـ في الثانويات خاصة ـ بذخيرة صالحة وسلاح قوي يخوض بها المعركة القائمة بين الايمان والالحاد على اساس العقل الناضج ، والتفكير السليم ..

ما لم يحدث ذلك ، وغير ذلك ، فان الجفوة ـ المفتعلة ! ـ بين العلم والدين ستزداد ضراماً ، والهوة السحيقة ـ المتوهمة ـ بين الدين والعلم ستمعن في الاتساع والتعمق ، وسيكون النصر في هذه المعركة آخر الامر حليف الالحاد والفوضى ، لا حليف العلم الصحيح ، ولا الدين ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « لا تقوم الساعة وعلى الارض من يقول الله » وفي حديث آخر « إلا على لكع بن لكع » ..

وان املنا ان تكون هذه « السلسلة » عوناً لاستاذ الدين في مهمته

السامية المقدسة ـ المعقدة ـ ، ونبراساً لكافة المثقفين ، تزيل لهم الشبه ، وتوضح لهم الحقائق ، حتى يبنوا عقيدتهم على اساس العلم الصحيح ، والتفكير المستقيم .

وحسبنا ان نكون في هذا البحث قد « وضعنا النقط فوق الحروف » كما يقولون .

والله المسئول ان يحفظ عقائد النشء من أوضار الأوهام وأخطار الأباطيل ، وان يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، ليكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليهم شهيداً ، فبيده ـ وحده ـ الهداية ، وله الحجة البالغة ، وهو نعم المولى ، ونعم النصير ..

محمد علي يوسف

توضيح :

رأيت ان أضع اكثر النصوص ـ الافرنجية ـ بلغتها دون تعريب ، فان دقة الترجمة ، والحفاظ على روح النص عند ترجمته ، يتطلبان مجهوداً نحن احوج الى بذله فيما هو اهم من ذلك ما دام القارىء ـ الذي لا يعرف الانجليزية ـ يمكنه ادراك المقصود من « النص » من السياق ..

م ٠ ع ٠ ي

الباب الأول

الإلحاد والعلم

هل يفضي العلم بصاحبه الى الالحاد ؟ سيقول اناس لا ، وسيقول آخرون نعم .

يقولون لا لأنك تجد الالحاد اقدم من العلم ، بل انك اذا نظرت الى الالحاد قبل النهضة العلمية الحديثة – تجده وليد الجهل المحض . ويكفي ان تقارن بين سقراط وافلاطون وارسطو مثلا ، وبين غيرهم من الملاحدة الذين عاصروهم ، بل انك إذا قارنت بين الأنبياء – وان كانت علومهم وهبية – وبين غيرهم من الملاحدة الذين عاشوا معهم ، ووقفوا في سبيلهم ، فانك لن تعزو الالحاد إلا الى ضيق الادراك ، وسطحية التفكير ، وضآلة المعرفة .. فاذا تركت عصور ما قبل النهضة الحديثة ، وواكبت هذه النهضة ، وصحبت رجالها ، وجدت عدداً

كبيراً من العلماء الذين قادهم العلم الى الإيمان وهداهم اليه .

واذا نظرنا الى المسألة من الجانب الآخر نجد الالحاد صحب العلم — الحديث خاصة ! — ولازمه ملازمة الظل ، بل وانتشر بانتشاره ، وقوي بقوته ، فهو والحالة هذه لازمة من لوازمه ، ونتيجة من نتائجه ، وأثر من آثاره يقول العلامة جود « C.E.M. Joad » « لا استطيع ان اعد اكثر من ستة من معارفي ممن اعدهم مؤمنين بالمسيح والمسيحية ، في حين استطيع ان أعد بسهولة اكثر من مائة من معارفي الملحدين »[1] وغير خاف ان معارفه كلهم من الفلاسفة والعلماء وكبار المثقفين ، ويقول ايضاً « اصبح من النادر ان تجد مثقفاً متديناً »[2] ويقول « اصبح الذين يذهبون الى الكنيسة هم في الاغلب من الطاعنين في السن او النساء غير المثقفات ، وهم مع ذلك لا يزيدون عن العُشْر (يعني من سكان بريطانيا)[3] ويقول اللورد هدلي Lord Herdley « ان خلو الكنائس يرجع الى القفزات الجبارة التي قفزها العلم ، والخطوات السريعة الواسعة التي خطتها الثقافة في العصر الحديث[4] » .

فانت ترى بناء على ما تقدم — ان الذين يقولون ان العلم يفضي بصاحبه الى الالحاد لهم حجة يتذرعون بها ، وان الذين يقولون ان العلم يفضي بصاحبه الى الايمان لهم مستند يستندون عليه في نفس الوقت ويبدو ان كلا الفريقين على حق . وهذه من المفارقات التي لا يقبلها عقل ، ولا يقرها منطق .. ويرجع هذا الخلط — فيما نعتقد ، — الى ان الناس حين يتكلمون عن الالحاد لا يفرقون بين الكفر بالدين وبين الكفر بالخالق جلّ وعلا ، فان الكفر بالاديان لا يستلزم الكفر بالخالق ، فقد وجد

---

(١) و (٢) و (٣) انظر كتاب Recovery of Belief ص ٢١ طبعة ١٩٥١ .
(٤) انظر كتاب The Affinity Between Original Church of Christ And Islam صفحة ١٩ .

طائفة من العلماء امثال Cherburry و Collins وغيرهما ممن كفروا بالكتب والاديان السماوية جمعاء ، ولم يخرجهم ذلك عن الايمان بالله [١] ، فلا بد إذن من التفرقة بين الكفر بالاديان وبين الكفر بالخالق والا لم يكن بد من الخلط والمفارقة . ولا شك ان لكل من الكفر بالاديان ، والكفر بالخالق مسبباته الخاصة التي تختلف عن مسببات الآخر تمام الاختلاف .

اذن ما هي الاسباب التي ادت الى كفر من كفر بالدين ؟ ولنركز الكلام **اولاً** : على المسيحية ، لأنها الديانة الكبرى التي نشأت النهضة العلمية الحديثة تحت سمائها ، وترعرعت بين اهلها .

مما لا شك فيه ان الديانة المسيحية لم يكن من طبيعتها مسايرة النهضة العلمية الحديثة في زحفها المطرد الحثيث ، وقفزاتها الواسعة الجبارة ، تقول دائرة المعارف البريطانية : « ان المعلومات الكونية واللاهوتية والعلمية التي وردت في الانجيل لا تخرج عن كونها مسائل جانبية لا تستحق النظر او الاعتبار إذا وضعت تحت منظار العلم الحديث [٢] ـ ويقول العلامة الفرد هوايت هد Alfred White Head. « ما من مسألة ناقض العلم فيها الدين الا وكان الصواب بجانب العلم ، والخطأ حليف الدين » .[٣] كذلك انظر المقتطفات التي نقلها الاستاذ احمد غلوش من مجلة Daily Graphic . بتاريخ ٦ يناير « انظر كتاب غلوش « The Religion of Islam » صفحة ١٩٣ » .

والأمثلة من اقوال المسيحيين انفسهم في هذا الصدد لاتكاد تحصى .

على ان الامر لم ينته عند هذا الحد ، فقد تضافرت عوامل اخرى

---

(١) انظر عقائد المفكرين للعقاد (مكتبة الانجلو المصرية) صفحة ٦٢ ، ١٣ .

(٢) انظر المجلد الخامس صفحة ٦٣٦ طبعة ١٩٥٣ .

(٣) انظر كتاب Science and The Modern World) صفحة ١٦٣ طبعة The American Library .

كثيرة من شأنها ان تؤدي الى الكفر بالانجيل ، وبالتالي بالمسيحية .

اولا : لا يوجد سند تاريخي متصل يربط بين الانجيل الحاضر والانجيل الذي انزل على السيد المسيح عليه السلام . والاناجيل المتداولة الآن وجدت بعد بضع عشرات من السنين من رفع سيدنا عيسى عليه السلام [1] وجاء في دائرة المعارف البريطانية ما نصه « لم يبق من اعمال السيد المسيح شيء ولا كلمة واحدة مكتوبة [2] » ويقول اللورد هدلي Lord Headley « ليس الانجيل الا مجموعة كتب كتبت في اوقات متباعدة عن بعضها [3] » واذا انتفى الايمان بصحة الكتاب السماوي نفسه ، انتفى ـ نتيجة لذلك الايمان بالدين الذي يدعو اليه ذلك الكتاب ! [4]

---

(١) انظر The Outline of History صفحة ٥٢٤ للعلامة هـ. ج. ولز .

(٢) انظر المجلد الخامس صفحة ٦٣٦ طبعة ١٩٥٢ .

(٣) انظر كتاب The Affinity Between The Original Church of Christ and Islam . صفحة ١٥ .

(٤) ولعل من الخير ان اذكر هنا الاقوال التي استشهد بها الاستاذ العلامة احمد غلوش في كتابه The Religion of Islam عند دراسته للانجيل (من صفحة ١٥٨ الى صفحة ١٦٨) .

والجدير بالذكر ان هذه الاقوال التي استشهد بها المؤلف هي لعلماء مسيحيين اصيلين غيورين على المسيحية . وليس فيها كلمة واحدة لمسلم او يهودي او لا ديني .

خلاصة هذه الاقوال هي :

أ ـ سبقت الاناجيل الاربعة الموجودة الآن محاولات عديدة ، وكانت هنالك قبل هذه الاربعة عدة أناجيل .

ب ـ نسبة الاناجيل الاربعة الموجودة الآن الى كاتبيها المعروفين الآن نسبة مشكوك فيها ، ولم تثبت صحتها حتى الآن ، وما زالت مصدر اخذ ورد ..

ج ـ هذه الاناجيل الأربعة ألفت تأليفاً ، ولم تصدر عن وحي ..

د ـ يختلف انجيل يوحنا عن الاناجيل الثلاثة الأخرى اختلافاً شديدا واضحاً =

ثانياً : من المقطوع به ان المراسيم والطقوس الكنسية المعمول بهـا الآن ، لم يمارسها سيدنا عيسى نفسه ، ولم يأمر بها [١] بـل الاصول التي تتكون منها العقيدة المسيحية لا تجد لها سنداً حتى في الانجيل نفسه [٢] خذ مثلًا بنوة السيد المسيح لله عز وجـــل ، تقول دائرة المعارف البريطانية « ان سيدنا عيسى عليه السلام لم تصدر عنه اي دعوى تفيد انه من عنصر إلهي ، او من عنصر اعلى من العنصر الانساني المشترك » [٣]

ثالثـاً : الديانة المسيحية الحاضرة ليست هي المسيحية التي جـاء بها السيد المسيح ؛ يقول « هـ » « ج » « ولز » « ان السيد المسيح هو واضع نواة المسيحية ، وليس بمنشئها [٤] » ويقول ايضاً « ان بعض الكتاب يرى ان السيد المسيـــح لا تربطه بالمسيحية الحاضرة أية صلة [٥] » ـ ويقول (ليكونت دى نوي) « لقد تجرأ اسقف كبير هو الدكتور وليـــام

= هـ ـ الاناجيل الثلاثة الأخرى تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً كبيراً وان كان اقل بالقياس الى انجيل يوحنا .

ملحوظة : نقل المؤلف هذه الاقوال من المصادر الآتية :

1) Peacks Commentary
2) Encyclopaedia Biblica
3) D.R. ph. Sehaffs Comparison To The Greek Testament and The English version .
4) D.R. Marray's Illustrated Bible
5) The Tewentieth Century New Testament

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية صفحة ٦٣٧ طبعة ١٩٥٣ .
(٢) انظر The outline of History للعلامة هـ . ج . ولز صفحة ٥٢٨ .
(٣) انظر المجلد الخامس صفحة ٦٣٢ طبعة ١٩٥٣ .
(٤) انظر The outline of History صفحة ٥٢٣ .
(٥) انظر المصدر السابق ٥٢٤ .

ذلك قدم للماديين والملحدين اقوى الدلائل الماضدة في كفاحهم ضد الدين »[1] كما يتضح اثر ذلك من قوله أيضاً « ان الطقوس المسيحية يجب ان تتخلص من بقايا الاثم الخرافي الذي اقصى عدداً كبيراً من المخلصين عن الدين مبدأ الالوهية »[2] ـ والجدير بالذكر هنا ان الزيادات الكثيرة التي ادخلت على المسيحية لم تكن اصيلة ، وانما مستوردة من ديانات اخرى ولا تتمشى مع العقلية الحديثة . يقول اللورد هدلي **Lord Headley** « ان معظم الديانات التي يدين بها الغرب ليس إلا حصيلة خرافات العصور الوسطى والقرون المظلمة »[3] انظر الفصل بعنوان اسس المسيحية الرسمية في كتاب مختصر تاريخ العالم للعلامة هـ . ج . ولز صفحة ٥٤٨ فما بعدها كذلك انظر الفصل بعنوان « اصول الديانة المسيحية التقليدية » في كتاب **The Affinity Between The Original Church Christ and Islam .** تأليف اللورد هدلي **Lord Headley** صفحة ٧٥ فما بعدها تجد مصداق ما اشرنا اليه .

وهنالك عوامل اخرى سنعود اليها في مجالها . وما ذكرناه هنا كاف للبرهان على ان المثقف لا يستطيع ان يعتنق المسيحية إلا إذا ألغى عقله ، واسلس قياده لهواه وعاطفته ، حيث ان كل العوامل الفكرية تنأى به عن المسيحية ، وإلا فكيف يقوده عقله الى الإيمان بدين تعتور كتابه الشكوك ، وتضج صفحاته بالأباطيل والخزعبلات ؟ كيف يقوده العقل ـ في عصر العقل ـ الى دين يقر ما لا يقره العقل ، ويقول بما لا يتفق مع العلم الحديث ! كيف يقوده العقل الى الايمان بدين عقيدته مستوردة من غيره ، وعباداته لا تمت اليه بادنى وشيجة ؟ كيف يقوده

---

(١) انظر المصدر السابق ٢٠٥ و ٢٠٦ .
(٢) انظر المصدر السابق صفحة ١٩٦ .
(٣) انظر **The Affinity between the Original Church of Christ & Islam .** ص ٣٤ .

تامبل اسقف كنيسة كنتربري (الكنيسة الانجليزية الاولى) على القـول بأن من الخطأ الفاحش ان نظن ان الله وحده هو الذي يقدم الديانة او القسط الاكبر منها »[١] وهو كلام خطير يدل دلالة واضحة على ان اعتناق المسيحية انما هو اعتناق دين من صنع البشر ، وليس من صنع الله اذا استثنينا القسط الضئيل الذي يتفضل الله بتقديمه دون ان يتفضل بالمزيد في نظر الاسقف الكبير ! ويقول الفرد هوايتهد **A.N. Whitehead** « ان الدين — كالعلم — خضع لتغييرات متعددة » يقول ذلك في محاولة تبرير الاخطاء العلمية التي وقع فيها ما يسمونه (الانجيل) [٢] فكلامه اذن منصب على المسيحية .

رابعاً : لو كان هذا القسط الاكبر مما يستميل المثقف ولا ينفره من الدين ، لهان الخطب على خطورته ، ولكن العكس هو الحاصل مـع الاسف الشديد ، خذ مثلاً (العقيدة المسيحية) التي سبق ان اشرنا الى انها من صنع البشر ، يقول ليكونت دينوي « ان العقيـــدة المسيحية اصبحت لا يمكن ان تستوعبها الغالبية العظمى من الناس في الوقت الحاضر اكثر مما يمكنها ان تستوعب النظرية النسبية »[٣] والذين ابتلوا بدراسة النظرية النسبية يدركون معنى هذا الكلام .. واذا تركت العقيدة ورجعت الى الزيادات الاخرى فانك تجد ليكونت دينوي مثلا يسميها (خزعبلات)[٤] ويظهر لك اثر هذه الزيادات من قول ليكونت دينوي ايضاً « ان مـا اضافه الانسان الى الديانة المسيحية ، والتفسيرات التي قدمهـــا ، والتي ابتدأت منذ القرن الثالث بالاضافة الى عدم الاكتراث بالحقائق العلمية ، كل

---

(١) انظر مصير البشرية ترجمة الاستاذين احمد عزت طه ، وعصام احمد طه صفحة ١٥٢

(٢) انظر كتاب Science and the Modern World صفحة ١٦٣ .

(٣) انظر مصير البشرية ترجمة الاستاذين احمد عزت طه ، وعصام احمد طه صفحة ١٩٦

(٤) انظر المصدر السابق ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

العقل الى الايمان بدين لم يتدم الله منه الا الجزء الضئيـــل ، والقسط الاكبر منه من صنع الانسان ؛ باعتراف الدكتور الأسقف تامبل ! كيف يقوده العقل الى الايمان بدين يؤخذ الناس فيه بخطيئة أبينـا آدم ، ولا يكفرها إلا دم رجل يأكل الطعام ، ويمشي في الاسواق ، يزعمون انه ابن الله !

يقول الاستاذ محمد عبده « ان الايمان بغير المعقول عند عامة المسيحيين اصل الاصول لا يختلف فيه كاثوليك ولا ارثوذكس ولا بروتستانت ، وهو ان الايمان منحة لا دخل للعقل فيها وان من الدين ما هو فوق العقـل بمعنى ما يناقض احكام العقل ، وهو مع ذلك مما يجب الايمان بـــه » واستشهد بقول القديس انسلم « يجب ان تعتقد اولاً بما يعرض على قلبك دون نظر .. » ثم قال « والويل كل الويل لطالب الفهم اذا ادى اجتهاده الى شيء يخالف ما تعلق به ايمانه »[1] .

على اننا بالرغم من كل ذلك نجد فئة قليلة يبدو انها صادقة الايمان بالمسيحية وبالسيد المسيح ، فكيف نفسر ذلك ؟

نترك الجهلاء والمقلدين ، ومن عدا هؤلاء فان ايمانهم بالمسيحية الحاضرة — على فرض صدقهم — لا يخرج عن الهشيم الذي تذروه رياح العلم العاتية وتحاول ان تجمعه عوامل نفسية لا صلة لها بالعلم ولا سند لها منـه ، ولا قيام لها معه .

خذ مثلا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، انها كفرت بالعلم كفراً صريحاً ، نعم كفرت بالعلم لتحتفظ بايمانها بالانجيل تقول دائرة المعارف البريطانية ما نصه « ان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية رفضت اي نتيجة

---

(١) انظر كتاب « الاسلام والنصرانية » لمحمد عبده طبعة المنار « الطبعـة السادسة » سنة ١٣٦٣ هـ .

خالف العلم فيها الانجيل ! »[1] فكيف يسند العلم من يكفر بـــه ؟ وكيف يؤيد العقل من يكفر بالعلم !

وهناك آخرون آمنوا بالمسيحية عن طريق التحايل ، لا عن طريق التعقل ، عن طريق الالتواء ، لا عن طريق الاستهداء ، عن طريـــق التعلل ، لا عن طريق التعليل ، ولعل ايمانهم بالمسيحيـــة ـ لو كانوا صادقين فيه ـ جاءهم لا عن طريق الاقتناع بالمسيحية مباشرة ، وانمـا عن طريق ايمانهم بوجود الله عز وجل ، وايمانهم بمبدأ الرسالات السماوية من حيث هي ، فظنوا ان الديانة المسيحية (بعـــد اجراء التعديلات اللازمة !) هي طريق الخلاص الوحيد ، فجعلوا يتحايلون على هـــذه التعديلات وسلكوا الى ذلك عدة سبل : طائفة ادعت ان من الخطـــأ الفاحش ان نظن ان الله يقدم الديانة كلها ، او حق القسط الأكبر منها ، حسب ما اوردنا من كلام اسقف كنتربري الدكتور تامبل ! فـلا بأس اذن من تصحيح القسط الاكبر الذي يقدمه الانسان بل ولا مفر منه ! وطائفة اخرى ، وثيقة الصلة بسابقتها ، آمنت بالانجيل على اساس الكفر بحرفيته ، فاذا قال العلم شيئاً ، وقال الانجيل خلافه ، قالوا مع العلم ما قاله ، وقوّلوا الانجيل ما لم يقله ، بحجة عدم الاعتداد بحرفيـــة الانجيل ، يقول ليكونت دينوي « ان اللغة الرمزية القديمة للانجيـــل لم تعد بحرفيتها موافقة لمتطلبات الساعة »[2] ويقول ايضاً « وقد اعترفت الكنيسة في القرن التاسع عشر بنقص الدقة العلمية في الانجيـــل »[3] ، وممن نادى بعدم الاعتداد بحرفية الانجيل (أي فيما ناقض فيـــه العلم)

---

(١) انظر المجلد الخامس صفحة ٦٣٦ طبعة ١٩٥٣ .

(٢) و (٣) انظر كتاب مصير البشرية ترجمة الاستاذين احمد عزت طه وعصام احمد طه صفحة ٢٠٨ .

الفيلسوف جود[١] C.E.M. Goad وغيره ، وهنالك طائفة فرانسس بيكون ومن نحا نحوه ، فهؤلاء نظروا الى « الحقائق » باعتبار الجهة التي صدرت عنها هذه « الحقائق » لا باعتبار « الحق » المتضمن فيها ، وجعلوا لكل مسألة ناقض العلم فيها الكتاب « المقدس » وجهين ، وجهاً يتصل بالوحي او الدين ، ووجهاً آخر يتصل بالعلم ، وكلا الوجهين صحيح عندهم ، وان لعن كل منهما الآخر ! فاذا قال الدين حسب مفهوم الكنيسة ان الارض مركز الكون مثلا ، فهذا صحيح باعتباره قول الدين ، وإذا قال العلم ان الارض ليست مركز الكون ، فان هذا ايضاً صحيح باعتباره قول العلم ! فلا يحتج بالدين على العلم ، ولا بالعلم على الدين وبذلك يحمل قلب المرء المثقف فكرتين متناقضتين في كل مسألة جرى فيها خلاف بين الدين والعلم ، وبذلك تحمّل المسيحية الحاضرة معتنقيها ما لا طاقة لهم به ، يقول ليكونت دينوي « ولا شك ان الرجل الذي يملك ايماناً متيناً فيكيف حياته حسب وصايا الكتاب المقدس ، غير ملتفت الى النزاع الداخلي والذي يشعر بوجوده حتى بين رجال الدين ، هو رجل سعيد ، ولكن هل يوجد كثيرون امثال هذا الرجل ؟ »[٢]

فانت ترى من كل ذلك انه ما من مسيحي مثقف اليوم يبني ايمانه بالمسيحية على اساس العلم ، بل ان العلم كما رأيت يهدم اسس الايمان بالمسيحية .

وما قلناه عن المسيحية ، يغني عن الكلام عن اليهودية ، بطبيعة الحال لأن كليهما في الهم شرق . إذن ، فما هو موقف الاسلام ، وما مدى اثر العلم الحديث ومدى انتشار الثقافة المعاصرة فيه ؟

---

(١) انظر Recovery of Belief صفحة ١١٠ و ١١١ .

(٢) انظر مصير البشرية صفحة ٢٠٨ .

إذا نظرنا الى العوامـــل التي نخرت في عظام المسيحية واليهودية واطاحت بهما ، نجد ان الاسلام - من هذه الناحية - في حصن حصين ، وركن ركين .

فالقرآن الذي نتلوه اليوم هو عين القرآن الذي كان يتلوه سيدنا محمد وأصحابه ، هذا بشهادة أعداء الاسلام ؛ يقول السير وليم موير وهو من ألد خصوم الاسلام « ومع ما أدى اليه مقتل عثمان نفسه من قيـام شيع متعصبة ثائرة زعزعت ولا تزال تزعزع وحدة العالم الاسلامي فان قرآناً واحداً قد ظل دائماً قرآنها جميعاً ، وهذا الاسلام منها جميعاً الى كتاب واحد على اختلاف العصور حجة قاطعة على ان ما أمامنـا اليوم انما هو النص الذي جمع بأمر الخليفة السيء الحظ ، والارجح ان العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثني عشر قرناً كاملا بنص هـذا مبلغ صفاته ودقته »[1] ويقول « والنتيجة التي نستطيع الاطمئنان الى ذكرها هي ان مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقاً فحسب ، بل كان كما تدل عليه الوقائع كاملا ، وان جامعيه لم يتعمدوا اغفـال أي شيء من الوحي ، ونستطيع كذلك ان نؤيد - استناداً عـلى اقوى الادلة ان كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها كما تلاها محمـد »[2] - ويقول الدكتور هيكل الذي نقلنا منه هذه العبارات التي رواهـا عن السير وليم موير ما نصه « أطلنا في اقتطاف عبارات « سير وليم موير » ، على ما وردت في مقدمة كتابه حياة محمد . على ان ما اقتطفناه يغنينا عن ذكر ما كتبه الاب لامنس وفون هامر ومن يرون هـذا الرأي من المستشرقين ، هؤلاء جميعاً يقطعون بدقة القرآن الذي نتلوه اليوم وبأنه يحتوي كل ما تلاه محمد على انه الوحي الذي تلقاه من ربه صادقاً كاملا .

(١) و (٢) انظر كتاب حياة محمد للدكتور هيكل الطبعة الثالثة الصفحات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

فاذا ذهبت بعد ذلك قلة من المستشرقين غير مذهبهم غير آبهين بالادلة العلمية التي ساقها « موير » وكثرة المستشرقين كان ذلك تجنياً على الاسلام لم يُمْلِيهِ غير الحقد على الاسلام وعلى صاحب الرسالة الاسلامية »[1] ويقول أربثنت F.F. Arbuthnot « ولقد ظل القرآن كما هو حتى اليوم بدون أي تحريف أو تبديل ، لا من المتحمسين له ، ولا من ناقليه الى لغات اخرى ، ولا ممن يتربصون به الدوائر ، وهو موقف لم يقفه — مع الاسف أي كتاب من كتب العهدين القديم والحديث معاً »[2] ويقول بوز **Basanta C, Bose** « لذلك فلم تكن هناك أي فرصة لتبديل أي جزء في القرآن او تحويره ، ولو بوازع الحماس له ، وهو الكتاب الوحيد الذي ينفرد بهذه المميزة بين سائر الكتب التي جاءت بها الديانات القديمة العظمى »[3] .

وما يقال عن القرآن الكريم يقال عن العبادات والشعائر والمراسيم الدينية التي جاء بها الاسلام ، فهي هي التي كان يؤديها سيدنا محمد نفسه ، وهي هي التي وردت اصولها في الكتاب الكريم وتولى سيدنا محمد تبيانها وشرح كيفياتها وسائر ما يتعلق بها مما ظل يتناقله المسلمون جيلاً عن جيل الى يومنا هذا ، ولقد ورد النهي الصريح الصحيح عن ابتداع اي امر في الدين مهما كان الباعث عليه ، يقول الصادق المعصوم صلوات الله وسلامه عليه « من احدث في امرنا هذا (أي ديننا هـــذا) ما ليس منه ، (وفي رواية ما ليس فيه) فهو ردٌّ[4] أي مردود ، وجاء في « الحديث الصحيح » ... وشر الامور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل

---

(١) انظر كتاب حياة محمد للدكتور هيكل الطبعة الثالثة صفحة ٣٨ .

(٢) انظر **The Construction of the Bible & the Coran** صفحة ٥٥ .

(٣) انظر **Mohamedanism** صفحة ٤ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلح ومسلم في كتاب الاقضية والامضية .

بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار »[1] الى غير ذلك من الاحاديث .. وأما قوله عليه الصلاة والسلام « من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها الحديث »[2] فهو لا يتناقض مع ما ذكرناه للاسباب الآتية ، أولاً : هذا الحديث لا يشمل الاصول والمبادىء لأنها قد فرغ منها ، يقول الله تبارك وتعالى « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي الآية » وما اكمله الله تعالى فلا يمكن لأحد ان يزيد عليه بحال من الأحوال ، وكل زيادة على ما اكمله الله فهي رد على صاحبها بنص الحديث السابق ، وكذلك يقول الله تبارك وتعالى « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله ورسوله الآية » ولو لم يكن كتاب الله وسنة رسوله قد استوفيا كل الاحكام المطلوبة لفض أي نزاع لما أمر الله بالاحتكام إليهما ، بل ولما جعل ذلك شرطاً في الايمان بالله واليوم الآخر كما جاء في بقية الآية . ثانياً : هذا الحديث (من سن سنة حسنة) لا يشمل الأركان ، يقول صلى الله عليه وسلم « بني الاسلام على خمس الحديث »[3] ، وهي القواعد التي تولت السنة المطهرة تبيانها للناس تبياناً لا مزيد عليه ، ووردت اصولها في الكتاب الكريم .. ثالثاً : كل سنة حسنة سنت أو تسن في الاسلام ليست ملزمة لأي أحد أدى أركان الاسلام الخمسة واحكم اداءها . ففي الحديث الشريف ان رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الاسلام فقال له « خمس صلوات في اليوم والليلة فقال : هل عليّ غيرها قال : لا إلا أن تتطوع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وصيام شهر رمضان فقال الرجل : هل على غيره ، قال : لا إلا أن تتطوع الحديث وفي نهايته فادبر الرجل وهو يقول لا أزيد على هذا ولا انقص

---

(١) روى الحديث بتمامه مسلم في كتاب الزكاة ، وابن ماجه في سننه وأحمد في مسنده .

(٢) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة .

(٣) البخاري ومسلم في كتاب الايمان .

منه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلح أن صدق[1] ومعنى ذلك ان استنان سنة حسنة في الاسلام لا يعني زيادة شيء على الاسلام بحيث يعتبر جزءاً من الاسلام ، وكل ما يعنيه حديث « من سنّ سنة حسنة في الاسلام » انما هو استنان الطرق التي من شأنها ان تيسر على الناس اداء الامور المفروضة عليهم في الدين ، او الواجبة عليهم في الدنيا ، كتدوين الحديث الشريف ، الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم منع من تدوينه خشية أن يلتبس بالقرآن الكريم ، فلما زالت اسباب هذه الخشية استنت كتابة الحديث لما فيها من التيسير على المسلمين ، وكصلاة التراويح جماعة في المسجد ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخشى أن تفرض على أمته لو أديت في المسجد بصورة مستديمة ، فتعجز أمته عن القيام بها ، فلما انقطع الوحي ، وكملت الفروض استنت صلاتها في المسجد جماعة لتنشيط الكسلان ، ولعمارة بيوت الله ، وهكذا .. اين هذا وامثاله من فرية بنوة عزير او عيسى لله عز وجل ، او تأليه مريم او دعوى ان الصلب انما حصل – في نظر المسيحيين – لتخليص البشر من شر خطيئة ابيهم آدم التي ليس لهم فيها يد ! ولا حيلة !.

ولذلك نرى « بودلي » المستشرق الامريكي الكبير يقول بحق « لو أن القديس بطرس عاد الى روما لامتلأ عجباً من الطقوس الضخمة وملابس الكهنوت المزركشة والموسيقا الغربية في المعبد المقرونة باسمه ولن يعيد البخور والصور والرقى الى ذهنه اي شيء من تعاليم سيده المسيح – ولكن اذا ما عاد محمد الى اي مسجد من المساجد المنتشرة بين لندن وزنزبار فانه سيجد نفس الشعائر البسيطة التي كانت تقام في

---

(١) البخارى في كتاب الايمان ، وفي كتاب الشهادات ، ومسلم في كتاب الايمان .

مسجده في المدينة الذي كان من الآجر وجذوع الشجر »[1]

أما صمود القرآن الكريم امام الكشوفات العلمية فيكفي في الدلالة عليه شهادة الفيلسوف الفرنسي الكس لوازون حيث يقول « خلف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة وسجل الاخلاق ، وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً او المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الاسلامية . فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ، مع ما نبذله من المساعي للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية[2] .

ولو وقف القرآن الكريم عند هذا الحد وحده ، لكان الكتاب السماوي الوحيد الذي انفرد بهذه الميزة بين سائر الكتب – التي تعتبر – سماوية ؛ بل بين سائر الكتب التي ألفت منذ اقدم العصور حتى اليوم ؛ اذ ما من كتاب يشمل اي نظريات ، حتى ولو كانت رياضية ، الا وجاء العلم بنقيض بعض ما حواه ، حتى الكتب التي الفت في القرن العشرين نفسه ، لم تستطع ان تصمد – من جميع جوانبها – امام جيوش العلم الزاحفة ، وكتائبه الجرارة التي ما تذر من شيء اتت عليه الا جعلته كالرميم .. الا القرآن الكريم فما تقدم العلم من خطوة الا وكشف عن ناحية من نواحي الاعجاز العلمي فيه والا واضاف برهاناً جديداً يؤكد ان القرآن كتاب عزيز ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » – فحين ينقض العلم ما زُجَّ به في الانجيل

---

(١) انظر كتاب « الاسلام بين الانصاف والجحود تأليف الاستاذ محمد عبد الغني حسن (سلسلة مع الاسلام) صفحة ٣٢ .

(٢) انظر كتاب الدين والعلم تأليف احمد عزت ترجمة حمزة طاهر ومراجعة الدكتور عبد الوهاب عزام (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨)

والتوراة ، نجد العلم يؤيد القرآن فيما ذهب اليه القرآن ، وتوصل اليه قبل العلم بمئات السنين .. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .. وبالجملة فاننا حين نجد الديانات الاخرى تحمل معاول هدمها بنفسها بين مقوماتها ، وعوامل اندحارها ، وانهيارها ضمن عناصرها التي تتألف منها ، نجد كيان الديانة الاسلامية اصلب ما يكون ، واقوى ما يكون ، وأصح ما يكون ، وليس فيه ثغرة واحدة يُنْفَذُ اليه منها ، ولا عيب واحد تكشفه الثقافة مهما نشطت ، ولا العلم بالغاً ما بلغ ، يقول المؤرخ الانجليزي ادواركيون « ان موحداً ذا دماغ فلسفي لا يتردد لحظة في قبول وجهات نظر الاسلام ، فالاسلام دين أعلى من تطورنا الفكري اليوم »[1] .

لكن بالرغم من كل ذلك لم يفلت الاسلام من الهزة التي شملت الديانات كلها في الآونة الاخيرة ، ويرجع ذلك الى أسباب ليس للاسلام فيها دخل ، كما سترى :

(١) من هذه الاسباب طغيان الموجة المادية التي جاءت بها المدنية الغربية والتي فرضت على الناس نموذجاً من الحياة جعلهم يتحللون من بعض الالتزامات الدينية ، مع ايمانهم بأصل الدين ، ومع ايمانهم بأن تحللهم هذا خطأ ، لكن لا بد منه بالنسبة لتيار المدنية المادية الجارف العتيد .. فشرب المسلمون الخمر ، وهم مؤمنون بحرمتها ، وتعاملوا بالربا ، وهم مقدرون لخطورته ، وسفرت نساؤهم كاسيات عاريات ، وهم واثقون انهم قد نهوا عنه ، وتهاونوا في اداء بعض الفرائض مع انهم مقتنعون بوجوبها ، كل ذلك لضعفهم امام تيار المادية الجارف .. وظل فريق منهم ثابتاً كالطود تصطرع الفتن حوله ولا تصرعه .

---

(١) انظر كتاب الدين والعلم لاحمد عزت تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام صفحة ١٢٥ .

(٢) ومن هذه الاسباب ثنائية الثقافة التي ابتلى بها الشرق الاسلامي قاطبة ، ولم يقف خطرها عند احداث فجوة ضخمة بين طائفتين من المثقفين . بل تعدى ذلك الى احداث فجوة بين من يسمون علماء الدين (او المثقفين ثقافة دينية) انفسهم ، فانقسموا بدورهم الى طائفتين طائفة تمسكت بمفاهيم العصور الاولى ، وابت ان تتزحزح عنها قيد شعرة ، وهذا هو الصحيح فيما يختص بالاركان ، ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد ، بل تعدوا ذلك الى المسائل العلمية التي تتأثر بتقدم العلم ، والتي صاغها القرآن الكريم في صيغ تناسب كل عصر ، وكل فئة . والطائفة الاخرى رمت هؤلاء بالجمود والتأخر والتزمت ، فارادت ان تتحضر و « تتعصر » وتتحرر ، فلا ارضاً قطعت ، ولا ظهراً أبقت ، بل وقفت مذبذبة بين ذلك لا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء .

خذ مثلاً مشكلة السموات ، تمسك اصحاب القديم — وهم محقون — في انها سبع ، وربما تمسكوا بما تناقله الناس من اوصاف هذه السموات مما لم يرد في القرآن الكريم او فيما صح من السنة المطهرة ، وفاتها ان السموات اما ان تدخل في باب العلم ، فلا بد من اقناع الناس بالحجة والمنطق في هذه الحالة ، او لا تدخل فتكون من المسائل الغيبية التي يجب الايمان بها كما وردت ، دون نقاش ، لان النقاش فيها لا يوصل الى نتيجة ؛ وطائفة اخرى تحضرت ، فأوّلت السموات بالكواكب ورأت ان العدد مما لا مفهوم له ! وظنت انها بذلك تحررت من الجمود ، وواكبت ركب العلماء « المعاصرين » ! وفاتها ان الفضاء كله لغز ابدي لم يحله العلم حديثه وقديمه ، ولن يحله حتى تتبدل الارض غير الارض والسموات ! ويكفي في البرهان على ذلك ان نقرأ كتاب « النظريات الحديثة عن الكون » Modern Theories of the Universe لمؤلفه كولمان James A. Coleman. وفيه يقول : « ان العلم لن يستطيع ان يدرك ما

وراء العالم المنظور Observable Universe مهما بلغت قوة المراصد ، ومهما استخدمنا من الطاقات » ، ويقول « ان العلم نفسه يقول ذلك ، فلا يمكن ان نرى ما وراء العالم المتطور ، فضلاً عن ان نصل اليه »[1] ! دعك من المسائل والمشاكل القضائية الاخرى[2] .

وقل مثـــل ذلك في مشكلة « الارواح » او الملائكة والشياطين ، ومشكلة كروية الارض ، فان المتحذلقين من هذه الطائفة التي يسمونهـا علماء الدين تنفي وجود الملائكة والشياطين وتؤول ما جـــاء منها في القرآن الكريم بقوى الخـــير (للملائكة) وقوى الشر (للشياطين) ويعنون بذلك القوى الكامنة في النفس ، وهذا التأويـــل وان كان لا يستقيم مع تفسير الآيات التي وردت ولو بتعسف الا أن المخجل فيـه انهم يظنون انهم يسايرون موكب العلم ، كأنّ الملائكة وما اليها تدخل في دائرة العلم ، وكأنّ ما لا يدخل في دائرة العلم يصح للعلم ان يتكلم فيه بنفي او اثبات ! فضـــلاً عن أنك اذا رجعت الى دائرة المعارف البريطانية وجدت فيها ما يثبت ان هناك ظواهر صادقـــة لا يمكن عزوها الا « للأرواح » او القوى غير المادية[3] ، وما يقال عن هـذه الطائفة في موضوع الارواح يقال عن الطائفة الاخرى منهم في موضوع كروية الارض ، فليس في القرآن الكريم آية واحدة تنفي ان الارض كروية ، وكل الآيات الواردة انمـــا تتكلم عن « السطح » فسطح الارض ممدود ، ومفروش ، وممهـــد ، الخ الخ ، ولا ينفي ذلك ان يكون

---

(١) Modern Theories of the Universe ص ٧٣ فما بعدها New American Library

(٢) انظر مقالتنا « السموات بين الفلسفة والدين التي نشرتها الرأي العام ، وكذلك كلمتنا التي اذاعتها الاذاعة السودانية مراراً « السموات بين القرآن الكريم والعلم الحديث » كذلك انظر الفصل الخاص بالسموات في الجزء التالي من هذا الكتاب .

(٣) انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب .

شكلها كروياً او غير كروي[1] ، فضلاً عن أن هنالك آيات استند فيها بعض العلماء على قول القرآن الكريم بما قاله العلم فيما يختص بشكل الارض « الهندسي »[2] .

وأسوأ من ذلك واخطر الطريقة التي يعالج بها انصاف العلماء من هذه الطائفة المشاكل الدينية ، رأيت لبعضهم كلاماً يدرس في المدارس يردون فيه على العلماء الذين « يقررون » ان المادة تشتمل على خواص الحياة ولا حاجة الى قوى غير القوى المادية لتفسر بها نشأة الاحياء على الارض – أترى ماذا قال هؤلاء العلماء ؟ وبماذا ردوا عليهم ؟ قالوا وما اعجب ما قالوا ، قالوا » وكلامهم هذا اي كلام العلماء من الملاحدة غير صحيح الا اذا رأينا مكاناً تنشأ فيه الحياة من الجماد او مادة مخلوقة من العلم تتحول الى حياة ، او صنعوا لنا خلية تلد انساناً سوياً يرث ما ينمو من الخلية الحية من خلائق الآباء والاجداد منذ آلاف السنين » هذا هو الرد الكافي والبرهان الذي لم يخطر ببال العلماء الماديين انفسهم ، والذي يقتلع الشك او الالحاد من قلوب النشء الذين قرأوا او سيقرؤون الأسس التي يبني عليها الملاحدة الحادهم ويقيمون مذهبهم ! وبمثل هذه السذاجة ، ومثل هذا الجهل ، ومثل هذا السخف ردوا على علماء الكيمياء الذين « يرون ان الاشعاع كاف لتفسير الحياة في المادة » أترى ماذا قالوا ؟ قالوا [3] لا فض فوهم

---

(١) و (٢) انظر كلمتنا التي اذاعتها الاذاعة السودانية مراراً بعنوان الارض بين القرآن الكريم والعلم ، وكذلك انظر الفصل الخاص بالارض من الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٣) بين يدي هذا الكتاب ، ولا داعي لذكره لانه لا يستحق وانا مستعد لأن اطلع اي احد يرغب في الاطلاع عليه !

« ونحن » اي والله قالوا « ونحن ! » – « ونحن نطالبهم بمثل ما طالبنا به علماء الاحياء السابقين فنقول لهم ان الشعاع يملأ الفضاء فهل يمكنكم انْ تركبوه كما حللتموه وهل يمكنكم ان تثبتوا لنا مكاناً يتحول فيه الشعاع الى ذرة وتتحول الذرة الى خلية حية ؟ ان هذا ما لا يمكن ! » وبمثل هذا المنطق استطاعوا ان يقنعوا الملاحدة من علماء الكيمياء ! كما اقنعوا الملاحدة من علماء الاحياء ! واسوأ من هذا وذاك انهم « سرقوا » هذا الكلام من « العقاد »[1] ومسخوه ليخفوا معالم الجريمة ، والعقاد ان خاطب الملاحدة بمثل هذا الكلام فانما يخاطبهم بعد ان يفرغ من جميع الحجج العلمية والمنطقية كما يشهد بذلك كتابه « الله » وغيره ، ومع ذلك فان مثل هذا الكلام – قبل ان تمسخه هذه العصابة – زلة من العقاد نفسه كنا نربأ بمثله عنها ! وان كان للعقاد ما يشفع له فيها ..

ومثل ذلك اعتماد هذه العصابة في اثبات وجود الله على البراهين التقليدية « برهان الخلق والابداع ، وبرهان الغاية ، وبرهان الحركة » والاكتفاء بذلك كأنّ الملاحدة العلماء الدين وصلوا الى القمر ، وغاصوا في البحر لم يسمعوا بهذه البراهين ! واسوأ من ذلك ان ينسبوا هذه البراهين الى القرآن الكريم[2] ، فيسيئون الى انفسهم بالجهل ويسيئون الى القرآن الكريم بالقصور ، وينفرون الشباب بمثل هذه البلبلة والجهل والاضطراب من الدين وكل ذلك جاء من ثنائية الثقافة التي مُني بها الشرق والتي اعادت قصة الغراب الذي كان في الزمان الخالي يمشي على رجليه باعتدال ! ثم كان من امره ما كان .. ومما يزيد النشء نفرة فضلاً عن

---

(١) انظر كتاب الله للعقاد صفحة ٢٨٥ الطبعة الثالثة (دار المعارف) .

(٢) سنبين ذلك في موضعه .

هذا الضيق في الافق ، وهذا الضعف في التفكير ، وهذه الضآلة في المعرفة ، تأخر المسلمين في جميع النواحي ، اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً ، فيعزون ذلك كله للاسلام ، والاسلام بريء منه ، فيفتر حماسهم له ، ويضعف ايمانهم به ، خاصة عندما يقرأون العوامل الاخرى التي هزت الاديان كلها هزاً عنيفاً .

من هذه العوامل دراسة الاديان المقارنة التي جعلت الاديان في نظر الملاحدة اسطورة من الاساطير ، وصورت لهم الاله الذي يؤمنون به خرافة من الخرافات تقلبت في شتى المظاهر – حسب مدارك الناس – وتطورت في شتى قوى الطبيعة المختلفة ، الى ان انتهت اخيراً بالاله الواحد ، حين بلغ العقل القمة ، ووصل التطور الفكري نهايته – ويظهر لك اثر هذه الدراسة المقارنة وخطرها من قول الاستاذ محمد فريد وجدي « ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره فتغلب عليها ودالت الدولة اليه في الارض فنظر نظرة في الاديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة الى عالم الميثولوجيا **Mythology** (الاساطير) ثم اخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض ، واتصال اساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديساً ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الانسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه وماله . وقد اتصل الشرق الاسلامي بالغرب منذ اكثر من مائة سنة فاخذ يرتشف من مناهله العلمية فوقف فيما وقف على هذه الميثولوجيا **Mythology** ووجد دينه ماثلاً فيها ، فلم ينبس بكلمة لانه يرى الامر اكبر من ان يحاوله ولكنه استبطن الالحاد متيقناً انه مصير اخوانه كافة

متى وصلوا الى درجته العلمية »[1] ومناقشة علم الاديان المقارنــة في تفاصيله المختلفـة تخرج بنا عن الغرض من هذا الكتـاب فلنكتف بنظرة الى النتائج الاساسية التي توصل اليها هذا العلم ، ولننظر الى اي حد تؤثر في الاديان عامة وفي الدين الاسلامي خاصة .

يقول هذا العلم ان الانسان عبد المظاهر والقوى الطبيعية ، وما زال يتدرج في ذلك حتى اكتمل عقله ووصل الى ارقى نوع من العبـادة ، عبادة الاله الواحد الذي تخيله ، وليس له وجود ، فماذا في هذا مما ينقض ما جاءت به الاديان . والاديان السماوية كلها ما جاءت الا لمقاومة هذا الشرك « وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون » والقصص التي قصها القرآن الكريم عن سيدنا ابراهيم ونوح ، وصالح ، وهود ، وغيرهم من المرسلين تصور الصراع العنيف بين دعوة هؤلاء الرسل الى عبادة الاله الواحد ، واصرار اقوامهم على مـا وجدوا آباءهم واجدادهم عليه ! فليس بين القرآن الكريم ودراسة الاديان المقارنة خلاف من هذه الناحية ، على ان علم دراسة الاديان المقارنة لم يستطع ولن يستطيع ان ينفي ان الوحدانية سبقت التعدد ونزلت من السماء ، ولكن سرعان ما تأثرت بعوامل الشرك المتعددة — التي تطورت بتطور العقول ، ولم تظهر اثار الوحدانية في المخلفات الانسانية جلية كما ظهرت اثار التعدد والشرك ، لان الوحدانية ايمان بالغيب والعقل البدائي من طبعه الايمان بالمحسوس والمشاهد ولذلك طغت مظاهر الشرك والوثنية طغياناً تاماً لم يدع الفرصة لظهور الوحدانيـة بنفس الصورة او بصورة قريبة من الصورة التي ظهرت بها آثار الشرك يقول الله تبارك وتعـالى « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ويقول « فما وجدنا فيها

---

(١) انظر كتاب « موقف العقل والعلم والعالم » بقلم مصطفى صبري شيخ الاسلام الجزء الاول طبعة عيسى الحلبي ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م صفحة ٢٤ .

غير بيت من المسلمين » الخ .. بل أن اثار الوحدانيـة – بالرغم من ذلك – ظاهرة في عقائد القبائل البدائية المتأخرة في افريقيا وغيرهـا وهي اقوى دليل على سبق الوحدانيـة رغم تأثرها بمظاهر الشرك الطاغيـة[1] .

وعلى كل حال فان دراسة الاديان المقارنة وان استطاعت – بحق – ان تصور تطور فكرة الاله الطبيعي « في العقول » منذ العهد البدائي الى الى اليوم ، فانها لا تستطيع ان تنفى أنـه بجانب هذا الاله الطبيعي المخلوق كان هناك إله واحد حقيقي آمنت به القلة على أيـدي رسل صادقين ، ان شك الناس في معجزاتهم فلن يشكو – عند دراسة سيرتهم – في صدقهم وإيمانهم ، وتضحيتهم في سبيل ما كلفوا بتبليغـه للناس ، وحتى على فرض تطور فكرة الاله في مراحلها المختلفة حتى انتهت الى الوحدانية في آخر الامر فان ذلك لا ينفي ان الله ارسل رسله بالاديان عندمـا اكتملت عقول الناس ، وأصبحت قادرة على فهم الوحدانية ، فتكون النقطة التي انتهى اليها تطور الفكرة عن الاله ، هي نقطة البـدء في الرسالات الإلهية ، والاديان السماوية ، ويؤيد ذلك قوله تعالى « كان الناس أمة واحدة » أي متفقين على الباطل[2] .

ويمكن تلخيص أثر دراسة الاديان المقارنة فيما يلي[3] :

أولاً : انها اثبتت وجود أديان ليس هناك ما يمنع أنها في جوهرها من وحي الله وان شابتها خرافات من فعل السحرة والكهان ، وبذلك

---

(١) انظر كتاب Comparative Religion للدكتور Boquet صفحة ٤٧ .

(٢) انظر تفسير الصاوي على الجلالين - البقرة – كذلك انظر الجمل على الجلالين .

(٣) انظر عقائد المفكرين في القرن العشرين للاستاذ العقاد ص ٦٤ (مكتبـة الانجلو المصريـة .

انحرفت الامم البدائية في حالاتها عن طريق ذلك الوحي القديم .

ثانياً : « انها لم تنف وجود أديان موحاة من الله » .

ثالثاً : « زودت طائفة كبيرة من الباحثين بالحجة القوية على ضرورة التدين وانه بديهة مركبة في طبيعة البشر . ولولا ذلك لما أجمعوا على التدين متفرقين في أرجاء الارض مع اختلاف الازمان ، وتفاوت الحضارات وتباعد الثقافات ، وطبقات التفكير » .

رابعاً : « انها شككت العقول زمناً في اصول الاعتقاد ثم أصبحت في القرن العشرين سنداً لمن يؤثرون الاعتقاد ويشككون في الافكار » .

خامساً : (وهو أمر نضيفه الى ما خلص اليه الاستاذ العقاد من نتائج) وهو ملخص بحث في مجلة Islamic Review (عدد ديسمبر ١٩٥١) صفحة ٣٦ فما بعدها — وخلاصة هذا البحث - استناداً الى أساطين الفكر في هذا الخصوص من أمثال : Lewis Spence واضطرابه — « ان فكرة « الاله الواحد » صحبت الانسان منذ فجر التاريخ ، وأنها سبقت فكرة التعدد بل وصحبتها بعد ظهورها — وهذا مما يطيح باوهام الملاحدة وتخرصاتهم . »

ويرى الاستاذ العقاد — عليه الرحمة — ان الدين الاسلامي لا يمكن ان ينسجم في الاطار الذي يفرضه علم الاديان المقارنة فان الاراء التي يقول بها الباحثون في هذا العلم : « بها نقص يتبين للناظر فيها كلما قابل بينها وبين الحقائق الثابتة عن تاريخ الاسلام ، فلا مناص من تغييرها او تغيير التاريخ الثابت الذي لا ينكرونه اذا عادوا اليه بالتمحيص النزيه [١] » .

(١) انظر ما يقال عن الاسلام للعقاد ص ٤٨ فما بعدها (مكتبة دار العروبة) .

وبذلك ينهار كل ما يتمشدق به الملاحدة استناداً على دراسة الاديان المقارنة.

ولو أن الامر وقف عند دراسة الاديان المقارنة ونتائجها لهان الخطب ، ولكن زاد الطين بلة إمكان تفسير كل ما في الكون على اساس مادي ، حسب اعتقاد الملاحدة وانكار وجود الاله ، وبالتالي الكفر بالاديان السماوية ، كل ذلك على اساس - متوهم طبعاً - من العلم ، ويظهر ذلك في اعتمادهم على نظرية التطور التي تفسر تطور الحياة والاحياء (وحتى غير الاحياء) تطوراً آلياً ، (أو تلقائياً كما يقولون) دون الحاجة في زعمهم الى تدخل أي قوة من القوى غير الطبيعية أو غير المحسوسة ، كما يظهر ذلك من اعتمادهم على قوانين المصادفة (حساب الاحتمالات) الذي يردون اليه - وحده - كل مظاهر النظام والتدبير في هذا الكون ، وكذلك الى ثالث الاقانيم أو ثالثة الاثافي وهو ما يسمونه « الطبيعة » ونتيجة الى هذا الثالوث (التطور - المصادفة - الطبيعة) استفحلت مشكلة الشر ، واستعصت على كل حل وأصبحت ايضاً من اقوى ما يعتمد عليه الملاحدة في البرهان على انكار وجود الاله ، وبناء على ذلك لا بد من بحث كل مسألة من هذه المسائل بحثاً مستقلاً لا يتجاوز مدى التفصيل فيه الغاية المرجوة منه والمنشودة فيه : -

أولاً :

المصادفة

تحتل « المصادفة » في عالم الالحاد مكانة في منتهى الأهمية والخطر ، وهي - على كل حال - عند الملاحدة اشبه بما يسمونه « الجوكر » في لعبة الورق (الكتشينة) .. فكل ما عجز العقل عن تعليله فرده الى المصادفة ، وكل ما خفي عن الادراك سببه ، فسببه المصادفة ،

وكل منطق يؤدي في نهايته الى التسليم بوجود خالق مدبر حكيم عند المؤمنين ، ينتهي عند الملاحدة بوجود شيء لا وجود له ، هو المصادفة ، وكل ما كان ، وكل ما يكون ، وكل ما هو كائن فـَعِلـَّتـُه الاولى هي المصادفة وأساسه الحقيقي هو المصادفة ، منها صدر ، وعليها يقوم ، وبها يتخذ ما شاء ، او ما شاءت له المصادفة ، من شكل ، او كيف ، او اتجاه ..

وبما قوى من مكانة « المصادفة » في عالم الالحاد ، ما تلقاه من الاهمية في « حساب الاحتمالات » ذلك العلم المعروف الذي لا يقوم إلا على المصادفة ، والذي يُكوّنُ العمود الفقري لمختلف نظم التأمين التي تـُكوّنُ ـ بدورها ـ إحدى الدعائم الاساسية التي يرتكز عليها الاقتصاد في العالم الحديث .. ولما كان كثير من المثقفين ـ فضلاً عن العوام ـ لا يدور بخلدهم ، ولا تستسيغ عقولهم ان تكون للمصادفة قوانين ، وان تكون لها في العلم دولة رأينا أن نستشهد برأي عالمين عظيمين في هذا الموضوع : الدكتور فرانكلي ألن يتكلم :

« ان نظريات المصادفة والاحتمال لها من الاسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الاقرب الى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم .. ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول انها تحدث بالمصادفة ، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى . وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن ان يحدث بطريق المصادفة ، وما يستحيل

حدوثه بهذه الطريقة »[1] .. ويقول ليكونت دينوي « ان قوانين الصدفة قدمت وسوف تقدم دوماً خدمات جليلة للعلم ، ولن يمكن الاستغناء عنها »[2] .

ولما كان الذين يقولون بالمصادفة ، ويؤمنون بها ، ويؤلهونها ، يعدون من رجالات الصف الاول في العلم والمعرفة ، وبعد الافق ، وجب الا يكون الرد عليهم الا من اقوال الكثرة الكاثرة ، والاغلبية الساحقة ، من أمثالهم من اساطين العلم ..

يقول العلامة الامريكي « فرانكلين » ، وهو من المتخصصين في علم الحيوان في كتابه « سير التطور البشري » .

« ان تطور الانسان من غير استمداد من قوة معنوية ، وتقدمه في الطريق المرسوم للرقي من الحيوانية الى الانسانية ، يستحيل كما يستحيل في مطبعة جمع كتاب من تمثيليات شكسبير بالقاء الحروف دون تفكير . وليس من شك في أن التطور اوجد الانسان لا من المصادفات البحتة ، بل هو تطور كانت فيه من اوله الى آخره يد الله القادر المتعال »[3]

ويقول هنري بوانكاري وهو من اكبر الرياضيين المتأخرين وأشهرهم : « ان في هذا العالم انتظاماً واتزاناً لا يمكن ان يحمل على الصدفة[4] .

ويقول كامبل فلاماريون في كتابه « الله في الطبيعة » بعد كلام طويل :

---

(١) انظر كتاب الله يتجلى في عصر العلم صفحة ١١ .
(٢) انظر كتاب مصير البشرية ترجمة احمد عزت وعصام احمد صفحة ٤٣ .
(٣) انظر كتاب الدين والعلم - تأليف احمد عزت ص ٢٠٨ .
(٤) نفس المصدر السابق صفحة ٣٥ و ٣٦ .

« ليس كلامي هذا من جملة عقائد ما بعد الطبيعة المشكوك في صحتها ، بل من النتائج القاطعة التي استنبطت من تلك القواعد الثابتة للعلم ، كنسبية الحركة ، وقدم القوانين . ان النظام العام الحاكم في الطبيعة ، واثار الحكمة المشهودة في تكوين كل شيء ، والحكمة البالغة المبسوطة المنتشرة ، كضياء الفجر ، والشفق في الهيئة العامة لا سيما الوحدة التي تتجلى بقانون التطور الدائم ، تدل على ان القدرة المطلقة الالهية هي الحافظة المسيرة للكون ، هي النظام الحقيقي ، هي المصدر الاصلي لكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها »[1] .

فالمصادفة — اذن — لا عمل لها في نظره في هذا المجال .

ولنستمع الى كريسي مورسون A. Cressy Morrison رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه العلم يدعو للايمان « Man Does Not stand alone »

« ان الاوكسجين ، والهايدروجين وثاني اكسيد الكربون والكربون سواء أكانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة مع بعضها هي العناصر البيولوجية الرئيسية وهي عين الاساس الذي تقوم عليه الحياة ، غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضي بان تكون كلها في وقت واحد ، وفي كوكب سيار واحد ، بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة . وليس لدى العلم إيضاح لهذه الحقائق . اما القول بان ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية »[2] .

« .. في الاستطاعة أن نشير الى شيء حدث منذ زمن بعيد عند بدء الحياة على الارض ، وكان له شأن عظيم ، ذلك أن خلية واحدة

---

(١) نفس المصدر السابق صفحة ٣٥ و ٣٦ .

(٢) العلم يدعو للايمان ، ترجمة محمود صالح الفكي ص ٧١ .

قد نمت عندها القدرة المدهشة على استخدام ضوء الشمس في حل مركب كيموي ، واصطناع غذاء لها ولاخواتها من الخلايا . ولا بد أن لدات أخريات لخلية أصيلة أخرى قد عاشت على الغذاء الذي انتجته الخليـة الاولى ، واصبحت حيواناً ، في حين صارت الخلية الاولى نباتاً ، فهل يمكننا أن نعتقد ان كون خلية قد أصبحت حيواناً وأخرى قد أصبحت نباتاً ، انما حدث بطريق المصادفة »[1] – يعني هل في العلم ما يحملنا على هذا الاعتقاد ؟

« واذا نظرنا الى حجم الكرة الارضية ، ومكانها في الفضاء ، وبراعة التنظيمات ، فان فرصة حصول بعض هذه التنظيمات مصادفة هي بنسبة واحد الى مليون ، وفرصة حدوثها كلها معاً لا يمكن حسابها حتى بالنسبة للبلايين ، وعلى ذلك فان وجود هذه الحقائق لا يمكن التوفيق بينـه وبين أي قانون من قوانين المصادفة »[2] .

« ان المتفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها ولا المـادة مهما كانت موائمة للحياة ، ولا اي اتفاق في الظروف الكيموية والطبيعة قد تخلقه المصادفة يمكنها أن تأتي بالحياة الى الوجود »[3] .

ولنستمع بعد ذلك الى العلامة ليكونت دينوي الذي « كان رئيساً لقسم الفيزياء في معهد باستور ، ورئيساً لقسم الفلسفة في السوربون ، وتبوأ أكبر المراكز العلمية في أمريكا وحاز على جوائز علميـة عديدة جعلته احد اعلام هذا العصر »[4] .

---

(١) نفس المصدر السابق صفحة ٩٧ .
(٢) « « « « ١٨٦ .
(٣) العلم يدعو للايمان صفحة ٩٥ .
(٤) انظر مصير البشرية المقدمة للمترجمين احمد عزت طه وعصام احمد طه .

ليكونت دينوي يتكلم :

« .. سنرى أن هذه الفرضية (يعني القاء الامر على عاتق المصادفة) فرضية غير مقنعة ، وانها تؤدي الى متناقضات خطيرة ، لم تعالج حتى الآن »[1] .

« ان قوانين الصدفة قدمت وسوف تقدم دوماً خدمات جليلة للعلم ولن يمكن الاستغناء عنها .. أما الشيء الذي لا يمكن لهذه القوانين أن تفسره ، فهو ان خصائص الخلية تتوالد نتيجة لترابط معقد ، وليس عن اختلاط مشوش كما هو الحال في خليط الغازات ، فهذا الترابط المستمر القابل للتحويل الوراثي لا تشمله قوانين الصدفة »[2] .

« إن تفسير تطور الحياة بمجرد الصدفة لا يجد تأييداً في الوقت الحاضر ، فهو لا يسمح بضم الانسان وفعاليته النفسية في اطار عام ، ولا يفسر التطور التصاعدي لاشكال الحياة ، بل انه ينكر هذا الانتشار »[3] .

« اننا سنقوم في هذا الفصل بحساب الاحتمالات ، لكي ندرك رياضياً استحالة تفسير ولادة الحياة بالصدفة »[4] .

« فالصدفة وحدها كما أشرنا سابقاً عاجزة تماماً عن توضيح الظواهر التطورية الانعكاسية »[5] .

***

(١) المصدر السابق صفحة ١٤ ، ١٥ .
(٢) انظر المصدر السابق صفحة ٤٣ .
(٣) انظر مصير البشرية ترجمة احمد عزت طه وعصام احمد طه - تاليف ليكونت دينوي ٤٧ .
(٤) انظر المصدر السابق صفحة ٣٤ .
(٥) « « « « ٨٢ .

ولو استطردنا فيما ذكره العلماء في هذا الصدد لخرجنا عن المقصود ..
والذي نخرج به من كل ما ذكرناه هو ان قوانين المصادفة ليست عاجزة عن انكار وجود الله عز وجل فحسب بل انها تقدم البراهين على وجوده ، ولو بطريق غير مباشر كما رأيت .

ثانياً :

الطبيعة

وكلمة الطبيعة بالمعنى الالحادي لا تخلو من غموض ، على اننا نستطيع أن نقول أن الملاحدة يستعملونها بمعنيين ، الاول عام ، والثاني خاص .

المعنى العام للطبيعة عند الملاحدة :

يقولون : وهبت الطبيعة الجمل القدرة على تحمل العطش ، وتكبد مشاق الصحراء .. وهبت الطبيعة الدب الشعر الكث .. وهلم جرا ..
والطبيعة بهذا المعنى تقوم مقام الخالق عند المؤمنين .
والسؤال هنا هو : هل الطبيعة بهذا المعنى ، وفي مفهوم هذا الاستعمال شيء له كينونته وذاتيته ؟

ان قالوا ليست شيئاً ، دلوا على غبائهم ، او تغابيهم على الأقل ؛ اذ كيف يصدر شيء عن « لا شيء » .

وان قالوا نعم انها شيء ، توجهنا اليهم بسؤال آخر : أهي عاقلة مدبرة حكيمة ؟

فان قالوا « لا » كذبهم ما في هـــذا الكون من مظاهر التدبير والحكمة ، والتنظيم . وفاقد الشيء لا يعطيه وان قالوا نعم : انهـا عاقلة ، مدبرة حكيمة فقـــد اتفقنا ، ولم يعد الاختلاف بيننا – في الجملة – الا في اللفظ ، والعبرة بالمسميات لا بالأسماء .

المعنى الخاص للطبيعة عند الملاحدة :

يقولون : من طبيعة الاوكسجين والهايدروجين اذا اتحـــدا بنسب معينة ، ان ينتج من اتحادهما ماء .. من طبيعة الماء ان تَقِلّ كثافته عند التجمد .. وهكذا ..

فالطبيعة هنا كما ترى تحمل معنى الخاصية Property .

فاذا سألتهم كيف جاءت هذه الخاصية ، فأما رجعوا بك الى الطبيعة مرة ثانية ففسروا الماء بعد الجهد بالماء ، وظل الاشكال باقياً لم يحـل ، واما استندوا الى إلهم السابق « المصادفة » وقد بينا من قبـل ما في ذلك من الخطأ والخطل والفساد .

ثالثاً :

التطـور (Evolution)

التطور هو دعامة من الدعامات الاساسية التي يقوم عليها الالحـاد ، وهو في نفس الوقت احد الاقانيم الثلاثة (المصادفة ـ الطبيعة ـ التطور) التي يحلها الملاحدة محل الخالق جلت قدرته ، وينسبون اليهـــا كل ما كان ، وما يكون .

ونظرية التطور المعروفة من أقوى الأسلحة ، بل هي ـ إذا استثنينا عامل « الشر » ـ أقوى سلاح يشهره الملاحدة ، ويحاربون به فكرة الخالق والأديان ، وكل ما اتصل بعالم الروح .

ولذلك سنبحث هذه النظرية في هذا الفصل من ناحيتين :

١) هل نظرية التطـــور ـ إذا صحت ـ تنفي ، أو تؤدي الى انكار وجود الخالق ؟

٢) هل الأساس الذي تقوم عليه هذه النظرية صحيح ؟.

* * *

لا تنفي نظرية التطور وجود الخالق ، ولو صحت ، إلا إذا استطاعت ان تنفي وجود الغاية والهدف من كل تنظيم في عالم الأحياء والجمادات في هذا الكون ، على انها في الواقع ، حين فشلت في ان تنفي وجود الغاية والهدف ، عادت فأكدت وجودهما ، شاءت ، ام لم تشأ .

يقول الدكتور ادوارد هارتمان ، الفيلسوف الالماني الكبير في كتابـه المذهب الداروني صفحة ١٥١ من الطبعة الفرنسية ما مؤداه[١] :

« كان المذهب المادي قد انكر قبل داروين وجود النظام في الطبيعة رغما عن المشاهدات ، ولكن المذهب الداروني اعـاد الاعتراف بوجود ذلك النظام .. إلا انه تخيل تعليله بأنه نتيجـــة الادوار الميكانيكية المحضة .. »

إلى ان يقول : « ونقول بعبارة أخرى ان القصد يقتضي الميكانيكية ،

---

(١) انظر كتاب : « على اطلال المذهب المادي » الجزء الاول طبعـــة ١٩٢١ صفحة ١٠٤ ، ١٠٥ .

فأنه يستحيل بدونها ، كما يستحيل وجود الميكانيكية بدون وجود القصد ، فاذا تقررت نظرية الميكانيكية على اطلاقها ، تحققت معها نظرية القصد على اطلاقها كذلك . وإذا تحققت نظرية القصد على اطلاقها ، تحققت نظرية الميكانيكية كذلك .. وان رأى عدم وجود القصد عند الدارونيين من المسلمات التي لا يقوم عليها دليل ، ومن الأوهام التي لا اساس لها » ويقول كريس مورسن (رئيس اكاديمية العلوم بنيويورك) « ويبدو ان الغاية جوهرية في جميع الأشياء ، من القوانين التي تحكم الكون الى تركيبات الذرة التي تدعم حياتنا »[1] .

ويقول الدكتور جون أدولف بوهلر « ان الانسان يشاهد التنظيم والابداع حيثما ولى وجهه في نواحي هذا الكون . زيبدو ان هذا الكون يسير نحو هدف معين كما يدل على ذلك النظام الذي نشاهده في الذرات الخ الخ[2] ..

ويقول الدكتور واين اولت « ان ذلك النظام البديع الذي يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم »[3] وهو كلام يدل على وجود الهدف في الكون وإلا فما معنى التنظيم والابداع ؟

وقد سبق ان أوردنا لك في فصل « المصادفة » من اقوال فرانكلين وهنري بوانكاريه وكاميل فلاماريون وكريس مورسن وليكونت دينوي ، ما يدحض فكرة آلية المصادفة وبالتالي يحل محلها فكرة الغاية والقصد مما لا يتأتى إلا من خالق مدبر ، حكيم ، فلا داعي لاعادة هذه الاقوال هنا .

---

(١) العلم يدعو للايمان صفحة ١٣٤ .
(٢) صفحة ١٠٣ (الله تجلى في عصر العلم)
(٣) المصدر السابق (صفحة ١٣٤) .

ولا يخفى ان معظم العلماء ، مع ايمانهم بنظرية التطور ، على علاتها ، مؤمنون أيضاً بوجود إله موجه لهذا التطور ، وتعتبر نظرية التطـــور نفسها من مقومات هذا الايمان ومقوياته عندهم .

ويقول الدكتور ادوارد لامبرنس : ان المقام لا يتسع لضرب أمثلة أخرى لاثبات ان نظرية التطور المادي لا تستطيع ان تفسر لنـا تلك الاختلافات العديدة التي نشاهدها في عالم الاحياء : انهـا جميعاً تشير الى وجود خالق حكيم[1] .

ويقول الاستاذ العقاد عليه الرحمة الواسعة « اما (الفرد رسل ولاس) شريك داروين في القول بتعدد الانواع من اثر الانتخاب الطبيعي وعوامل البيئة الطبيعية فقد كان مؤمناً قوي الايمان بوجود الإله ، وكانت مراقبته لعوامل الطبيعة سبباً لتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات وانه كان يستخلص من فعل هذه العوامل في الطبيعة انها لا تجري على هذا المجرى لزاماً بحكم العقل ، أو بحكم التفكير المنطقي ، وانها كان يجوز ان تجري على مجراها هذا او على مجرى آخر يساويه ويماثله في حكم العقل ، والاقيسة المنطقية ، وانما هي الارادة التي اوجبت هذا النظام نتيجـــة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التي يريدها الله اغرب من نظام العوامل المطردة في ظواهر الكون ، ومرجعها جميعاً الى الارادة الإلهية على اطراد أو على استثناء »[2] .

أما « داروين » فلا شك ان موقفه من الايمان بوجود الخالق يكتنفه كثير من الغموض ، ولكن الواضح من خطاباته انه لم يؤخذ من جهـــة

---

(١) انظر المصدر السابق صفحة ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) الانسان في القرآن الكريم طبعة دار الهلال صفحة ١٢٩ .

نظرية التطور وانما جاءته الطامة من « الشر الذي يحيق بالعالم ، والذي لم يستطع ان يجد هو له تفسيراً ، ولا يهمنا في كثير ولا قليل ان يكون داروين مؤمناً أو ملحداً ، وانما الذي يهمنا هو ان نظرية التطـــور كما شرحها اقطابها لا تنفي وجود الخالق بحال من الأحوال كما اثبتنا ذلك فيما سبق .

يقول الاستاذ العقاد عن داروين انه « عاش بقية حياته مؤمناً بأن مذهبه لا يقتضي من العقل ان ينفي وجود الله ، ولا ان يمس عقائـــد المؤمنين بوجوده ، وان الايمان بأي ديانة من الديانات لا يتوقف عـــلى الفصل في قضية التطور الى الرفض او الى القبول [1] .

بقي بعد ذلك الاساس الذي تقوم عليه نظرية التطور ، وهو ــ كما سترى ــ اساس مهزوز لا يمكن التعويل عليه ، بالرغم من القبول الذي تجده هذه النظرية عند العلماء .

لنأخذ السجل الطبيعي للتطور ، وهو الحفريات ، التي استنبط منها العلماء نظرية التطور عن طريق الاستقراء والتتبع ، ولنستمع الى رأي احد العلماء الافذاذ العالميين فيه :

« ان التطور يبدو لنا كفلم سينمائي غير تام ، فهنالك اجزاء عديـــدة مفقودة ، ولا نعرف منه سوى مرحلته الحاضرة ، وبعض مقاطـــع من الماضي نحاول الربط بينها قدر استطاعتنا » [2] .

« الشروط الواجب توفرها لحفظ عظام المستحاثات بحالة صالحة خلال

---

(١) الانسان في القرآن الكريم طبعة دار الهلال صفحة ١٢٩ .
(٢) انظر كتاب مصير البشرية تأليف ليكونت دينوي مترجم صفحة ٤٨ .

ملايين السنين ليست متوفرة دائماً ، وصيانة النسج والاعضاء بحالة صحيحة أمر نادر الوجود »[1] .

« يجب ألا ننسى ان المخططات الوصفية للتطور تختلف عليهـا وهي موضع مناقشة وبحث دائم »[2] .

« علينا ان نذكر دائماً ان الحقائق الموجودة تحت تصرفنا هي آثار تركتها العضويات في الصخور القديمة ، وقد يحدث ان تجد بصمات قديمة جداً كثيرة الشبه بالبصمات التي تتركها انواع حديثة فتظن ان هذا النوع الحي يماثل عملياً النوع الذي كان موجوداً منذ العهود السحيقة »[3] .

واليك ما قاله العلامة H.G. Wells في هذا الصدد وقـد رأيت ان اثبته كما جاء لأنه لا يعدو ان يكون اجمالاً للفقرات التي اقتطفناها من كتاب مصير البشرية ، واثبتناها هنا قبل لحظات ..

« They (The carliest rocks) contain no single certain trace of life at all. »

« But when we call these rocks and fossils a record and a history, it must not be supposed that there is any sign of an orderly keepinq of a record. It is merely that whatever happens leaves some trace, if only we are intelligent enough to detect the meaning of that trace. Nor are the rocks of the world in orderly layers one above the other convenient for

---

(١) انظر كتاب مصير البشرية ، تأليف ليكونت دينوي مترجم صفحة ٦٨ .

(٢) نفس المصدر السابق صفحة ٦٤ .

(٣) نفس المصدر السابق .

men to read. They are not like the books and pages of a library. They are TORN, DISRUPTED, INTERRUPTED, FLUNG about, DEFACED, like a CARELESSLY arranged office after it has experienced a bombardment, a hostile military occupation, looting, an earthquake, riots ; and a fire. » (1)

فانظر : على أي أساس يعتمدون ، ومن أي شيء يستنبطون .

ومع ذلك فان النظرية – ولا عجب – عاجزة كل العجز عن تفسير كثير من الظواهر الأساسية في التطور مما يستحيل معه قبول نظرية التطور إلا بكثير من التزمت العلمي ، وتحكيم العاطفة على العقل ، واليك بعض الامثلة ، ولنترك الكلمة للعلامة ليكونت دينوي :

« ان اصل الحيوانات الفقرية ، والتي تمثل من وجهة نظرنا أهم مجموعة في عالم الحيوان ، لم يتمكن من تفسيره حتى الآن تفسيراً كاملاً [٢] ، – وجميع انماط الزواحف التي تعود الى الرتب الثلاث – أي التي مرّ ذكرها – ظهرت فجأة ومن المستحيل ربطها بأي سلف أرضي ، ونفس الشيء ينطبق على السلاحف » [٣] – وقد ذكر المؤلف انه لا يملك حقائق دقيقة تمكنه من معرفة كيف ظهرت هذه السلاحف والزواحف . ولا من أي الانواع تطورت [٤] – ثم ذكر المؤلف أن نفس المشكلة تنطبق على الثدييات « ولم يمكن للعلم حتى الآن تفسير ذلك وربطه باسلاف تطورت منها بالتدريج » [٥] – « من المستحيل إيجاد رباط حقيقي بين مجموعة حديثة ومجموعة قديمة ، ولذلك فاننا نتساءل عما اذا كان

---

(١) انظر The outline of History - Revised Edition ١٩٥١ صفحتي ٢٢ و ٢٤ .

(٢) و (٣) و (٤) و (٥) انظر مصير البشرية .

الانتقال من مجموعة الى أخرى قد تم بصورة فجائية ، أم بصورة متصلة قليلاً أو كثيراً »[1] — « أمكن وضع روابط تسلسلية للحصان بواسطة ستة اشكال وسطية تنتهي بالحصان الحالي . ولكن هذه الاشكال الوسطية تبدو كأنها ظهرت فجأة ، وحتى الآن ، لم نتمكن من معرفة الجسر الذي يربط بين هذه الاشكال الوسطية »[2] .

« يمكننا ان نقول انه ليس هناك شكل يعيش حالياً ، وهو سلف مباشر لشكل آخر ، فالانسان لم ينحدر من القرد »[3] .

أنا أعرف أن كثيراً من السخفاء ، او الببغاوات البشرية التي تردد ما لا تعي من الالفاظ سيعترضون هنا بما يسمى في علم الوارثة بنظرية الطفرة Mutation Theory كأنّ ليكونت دينوي هذا وأمثاله لم يعرفوا نظرية الطفرة ، ولم يسمعوا بها ، ولم يعيروها أدنى اهتمام او اعتبار حينما يقولون مثل هذه الاقوال .

ومع ذلك فلننظر موقف العلم من « الطفرة » ومدى اعتماد « العلماء » أنفسهم عليها .. يقول الدكتور ايرفنج وليام الاخصائي في وراثة النباتات ودراسة شكلها الظاهري واستاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميشجان « ولا شك أن النظرية التي تدعي ان جميع صور الحياة الراقية قد وصلت الى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن ، نقول ان هذه النظرية لا يمكن الاخذ بها الا عن طريق التسليم فهي لا تقوم على اساس المنطق والاقناع »[4] .

ويقول الدكتور ولتر ادوارد لاميرنس اخصائي علم الوراثة .

---

(١) و (٢) و (٣) انظر مصير البشرية .
(٤) انظر كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٥٤ .

وتعتبر هذه الطفرات على قلتها الاساس المادي الذي يبني عليه علماء التطور تفسيرهم لظاهرة التطور . ولكن هل يمكن ان تكون الطفرات حقيقة وسيلة للتطور ، ان الدراسة الطويلة المتصلة لهذه الطفرات في كثير من الكائنات وخاصة في ذبابة الفاكهة المسماة دروسوفيلا ميلانوجستر « تدل على أن الغالبية العظمى من الطفرات تكون من النوع المميت ، اما الانواع غير المميتة منها فان التغييرات المصاحبة لها تكون من النوع الذي يؤدي الى التشويه ، أو على الاقل من النوع المتعادل الذي يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد ، فمن الصعب اذن ان يؤدي تجمع هذه الطفرات الوراثية الى التغييرات اللازمة لنشأة أنواع جديدة تعتبر أكثر تقدماً ورقياً من اسلافها »[1] ويقول أيضاً :

« وقد تؤدي الطفرة في بعض الحالات النادرة الى تحسين صفة من الصفات كما يحدث في جناح الدروسوفيلا . ولكن اجتماع هذه الصفة مع بعض الصفات الاخرى التي تطرأ على الجناح يؤدي الى تكوين حشرات أقصر عمراً وأقل قدرة على الحياة ولكن دعنا نسلم جدلاً بحدوث طفرات نادرة تصحبها تحسينات ، فكم تحتاج مثل هذه الطفرات من الاجيال لكي تتراكم ويظهر أثرها وينتج عنها نوع جديد ؟ لقد وضح « باتو » في كتاب « التحليل الرياضي لنظرية التطور » ان تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات لا يمكن ان يستغرق اقل من مليون جيل من الاجيال المتتابعة ، وحتى لو سلمنا بقدم الاحقاب الجيولوجية كما يقدرها الجيولوجيون فمن الصعب أن نتصور كيف أن حيواناً حديثاً نسبياً مثل الحصان قد نشأ من سلفه الذي كان عدد

---

(١) انظر كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٧٢ و ٧٣ .

الاصابع في قدمه خمسة في الفـــترة من العصر الحجري (الايوسيني) الحديث حتى الآن »[1] .

* * *

من كل ما تقدم ، وهو غيض من فيض ، تعلم ان الاساس الذي تقوم عليه نظرية التطور – حتى اليوم – أساس مهزوز ، وان هـذه النظرية لم تعدُ ان تكون تفسيراً لظهور الكائنات الحية يخلق من المشاكل ما قدمنا لك منه البعض لا على سبيل الحصر .

ومع هذا ، فهنالك حقائق أصولية عامة تختص بهذه النظرية لا بد من التمثيل لها . لنستمع الى ليكونت دينوي :

« من المستحيل ان نتصور الآن كيف بدأ التطور ، أكانت هناك خلية بدائية ، أم انه يبدو من المستحسن القول بأن مادة حية لا شكل لها قد سبق وجودها وجود الخلية الاولى »[2] .

« نكرر القول هنا بأنه لا توجد حقيقة واحدة او نظرية واحدة في يومنا هذا تقدم تفسيراً قاطعاً لمولد الحياة وتطور الطبيعة »[3] .

« ان سبب ، وحتى حقيقة التطور ، لا تدخل ضمن دائرة علمنـــا الحاضر ، ولا يمكن لأي عالم على الارض ان ينكر ذلك »[4] .

---

(١) انظر كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ص ٧٣ .
(٢) انظر كتاب مصير البشرية (ليكونت دينوي مترجم) ص ٥٩ .
(٣) نفس المصدر السابق ص ١٢٩ .
(٤) « « « ص ١٩٢ .

هل سمعت البيغاوات البشرية التي تردد الالفاظ الجوفاء التي لا تعيها من امثال التطور ، والطفرة والطبيعة ، والمصادفة ، اقول هل سمعت هذه البيغاوات مثل هذه التصريحات من رجل مثل دي‌نوي هذا كان « رئيساً لقسم الفيزياء في معهد باستور ، ورئيساً لقسم الفلسفة في السوربون ، وتبوأ أكثر المراكز العلمية في أمريكا ، وحاز على جوائز علمية جعلته أحد اعلام هذا العصر »[١] .

ومع كل ذلك فان نظرية التطور – على علاتها – يؤمن بها أو على الأصح يقبلها جمهرة العلماء اليوم ، فلماذا آمنوا بها ؟ الأنها صحيحة ؟ ام لسبب آخر ؟

البروفسور د. س. م. واطسون D. S. M. Watson يجيب :

Evolution has been accepted by scientists, not because it has been observed to occur, or proved by a logical coherent evidence to be true, but because the only alternative, special creation, is clearly unacceptable » (2)

وقد رأيت ان اضع هذا النص كما هو ومضمونه أن العلماء لم يقبلوا نظرية التطور لانها صحيحة في ذاتها ، او لانها يمكن البرهان على صحتها بطرق صحيحة سليمة منطقية علمية وانما قبلوها لانهم لم يجدوا امامهم الا واحدة من اثنين اما قبولها على علاتها ، او رفضها وقبول فكرة الخلق المباشر ، فآثروا الأولى ، ورفضوا الثانية .

والذي يهمنا من هذا التصريح الجريء هو ان ايمان العلماء بنظرية التطور لم يكن ناشئاً عن صحتها ، فان الاساس الذي تقوم عليه – كما بينا –

---

(١) انظر مقدمة الاستاذين لترجمة مصير البشرية .

(٢) انظر The Recovery of Belief للعلامة الفيلسوف Goad ص ٢١ .

أساس مهزوز ! اما ان يكون « الخلـق المباشر Special creation » مقبولاً او غير مقبول فهذا ما لا يدخل في دائرة « العـلم » - أو لم يدخل بعد في دائرة العلم - حتى نقيم لحكم العلم فيه أي وزن ، وكم من الحقائق كانت تعتبر من الخرافات ، ثم أصبحت اليوم من الاصول الاولية التي لا تقبل الجدال !

ويقول الاستاذ العقاد [1] - وهو حجة في هذا الباب لسعة اطلاعه ، وسلامة تفكيره : « واذا رجعنا الى مكان مذهب التطور من العلم لم نجد من يحسبه علماً قاطعاً مفروغاً من أصوله وفروعه . واكبر انصاره لا يدعى له أكثر من انه صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته .. »

* * *

وبعد فهذه كلمة « العلم » في هذه النظرية ، ويبقى بعد ذلك سؤال هام هو : اذا صحت نظرية التطور في يوم من الأيام مع دلالتها على وجود الخالق ، فماذا يقول الدين ؟

أما المسيحية فلا يمكن ان توفق بين نظرية التطور - لو صحّت .. وبين المفهوم من صريـح ما جاء في الانجيل ، او ما اثر عن اقطاب المسيحية بعد السيد المسيـح عليه السلام كما يقول العلامـة الفرد نورث هوايت هيد [2] .

وغني عن البيان ان « هوايت هد » هذا يختلف في هذه الناحية من الاب « نابرباور » Knaberbauer الذي يقول - فـيما نقـله الاستاذ

---

(١) انظر عقائد المفكرين صفحة ٥٩ (مكتبة الانجلو العصرية) .
(٢) انظـر Science &the Modern world تأليـف Alfred North Whitehead صفحة ١٦٣ . (New American Library)

العقاد [1] « ان اصول الاعتقاد التي اشتمل عليها سفر التكوين تبقى ثابتة غير ممسوسة ولو فسرنا الاحوال التي نشأت فيها الانواع وفاقاً لقواعد التطور » .

اما الاسلام فليس فيه ما يناقض نظرية التطور ان كتبت لها الصحة في يوم من الايام يقول « الشيخ محمد رضا آل العلامة التقي الاصفهاني » فيما نقله الاستاذ العقاد [2] ما نصه « ان فلسفة النشوء والارتقاء ليست مما ينافي الدين ، اذ الذي يجب علينا اعتقاده هو ان جميع الموجودات باراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات صنع اله واحد قادر حكيم وسع كل شيء علماً ، واتقنه صنعاً ، خلق جميع الانواع عن قصد واختيار . وهذا امر متفق عليه في جميع الاديان . واما كيفية الخلق ، وان هذه الانواع كلها خلقت خلقاً مستقلا ووجدت من كتم العدم ابتداء ، وانها لم تتغير عما وجدت عليه في اوائل الخلق فهذا امر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة » .

ويقول الاستاذ محمد فريد وجدي [3] « ان هؤلاء الناس الذين يعادون قوانين مذهب دارون كله لاجل نتيجته لا يدرون انه قد أقام أقوى البراهين الحية على حقائق قرآنية كان الغربيون لولاه يتوهمون انها جهالتنا الضعيفة التي يبرهنون بها على عدم حقية ديننا » .

على ان فضيلة الاستاذ محمود شلتوت يقف موقفاً آخر ، فهو يرفض

---

(١) انظر « عقائد المفكرين » صفحة ٥٨ (مكتبة الانجلو المصرية) .

(٢) انظر (الانسان في القرآن الكريم) طبعة دار الهلال صفحة ١٠٦ .

(٣) انظر (ملحق الانسان في عصر العلم) المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٣٥٠ هـ صفحة ١٠٠ .

نظرية التطور رفضاً باتاً[1] ، ويبني رفضه هذا على مقدمتين اثنتين .

المقدمة الاولى : ان نظرية التطور « لم يدل عليها برهـان ، ولم يشهد بصحتها حسّ او تجربة » . وقد قرر الدين ـ كما يقول الاستاذ شلتوت ـ رفض كل الفروض التي من هذا القبيل ، فلا غرو اذن أن يرفض نظرية التطور .

المقدمة الثانية : ان نظرية التطور تخالف صريح القرآن ، كما يقول الاستاذ شلتوت مستدلاً بقوله تعالى « لقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون الى غير ذلك من الايات التي في هذا المعنى .. »

ونظرة واحدة الى هاتين المقدمتين تريك ما بهما من فساد ودَخَلَ .

اما أنّ نظرية التطور لم يدل عليها برهان ولا حس ، ففيـه من الغلو ما لا يليق ان يصدر من رجل كالاستاذ شلتوت ، خاصة ونظرية التطور تحظى بقبول جمهرة العلماء اليوم ، ولا يمكن ان تنال هذا القبول الجماعي ـ او الشبه الجماعي ـ من اهل الاختصاص وهي مجرد « وهم لا يقوم عليه دليل ، ولا يشهد بصحته حسّ » ، والذي لا شك فيه أن هنالك من الادلة العلمية ما يبرر ميل العلمـــاء لقبول نظرية التطور ، صحيح أن هذه الادلة ـ في جملتها وفي آحادها ـ ليست قطعية الدلالة ، ولا حتمية النتيجة كما أن بهـــا من القصور ، ما سبق أن اوردنا لك طرفاً منه ، ولكن هذا لا ينفي ان هنالك أدلة ، ولا ينفي ما لهذه الادلة من الوزن والاعتبار ، واذا كان القول بان نظرية التطور اصبحت حقيقة علمية لا تقبل الجدل ، اذا كان هذا القول خطأ ، فخطأ مثـله

---

(١) انظر كتاب « الفتاوى » لفضيلة الشيخ محمود شلتوت صفحة ٣٦٩ فما بعدها – طبعة الادارة العامة للثقافة الاسلامية بالازهر (جمادى الآخرة ١٣٧٩ هـ – ديسمبر ١٩٥٩ م) .

ان يقال ان نظرية التطور ضرب من الاوهام والظنون !

واما ان نظرية التطور تعارض صريـح القرآن ، فمسألة فيها نظر على اقل تقدير ، فقد مرّ بـك قول من يختلف مع الاستاذ شلتوت في ذلك .

على أن الآيات الشريفة القائلة بخلق الانسان من صلصال او ما الى ذلك لا تنفي مبدأ التطور من حيث هو ، والا لفهمنا منها ان ابانا آدم عليه السلام ، لم يخرج عن كونه تمثالاً من الطين نفخ الله فيه الروح ، وجعله يتصرف تصرف من نسميهم الآن الادميين ، وحفظه من الأمطـار حتى لا يذوب ، او جعله بقدرته طيناً غير قابـل للذوبان بالماء ـ Water proof ـ ! وهذا ما لا يقول به عاقل فضلاً عن مسلم ! فلا شك ان هذا الطين ـ او هذا الصلصال ـ تطور بقدرة الله ومشيئته الى لحم وعظم ، او الى مخلوق من لحم وعظم . كيف تطور ـ او ُطوّرَ ـ هذا الطين الى هذا المخلوق ، او كيف صار ـ او صُيِّرَ ـ الى هـذا المخلوق ، هذا ما سكت عنه القرآن الكريم ، وكيف يتعارض ما يقوله العلم مع ما سكت عنه القرآن !

لا يُفْهَمُ من هذا اننا نقول بموافقة نظرية التطور للقرآن الكريم ، ولكنا نقول ان نظرية التطور ـ لو قدر لها ان تقف على اساس ثابت ـ لا تتعارض مع القرآن الكريم ، فان الحق الذي لا مرية فيه ان القرآن قال بمبدأ التطور ، صراحة في خلق بني آدم من ماء مهين ، ولزوما في خلق أبيهم آدم من صلصال ، أو طين ، كما ان القرآن سكت عن طريقة هذا التطور وكيفيته ، وما سكت عنه القرآن فهو محل للاخذ والرد بدليل وبغير دليل !

* * *

ـه يتضح مما سبق من كلام العلماء ان نظرية التطور ان لم تؤكد الايمان بوجود الخالق ـ جل وعلا ـ فهي لا تنفيه بحال من الأحوال حتى على فرض صحتها من جميع الوجوه كما يتضح ان الذين يقولون بانها تهـدم مقررات الأديان ، إما تأثروا بمقررات الاديان غير الاسلام فظلموا الاسلام جهلاً او حملوا النظرية ما لا تحتمل فجهلوا العلم او كانوا جهلاء بالعلم والاسلام على السواء ..



الشر ووجود الباري جلت قدرته

كثيراً ما يقول الملاحدة اذا كانت هناك اشياء كثيرة في الكون تدل على التدبير ، والتفكير ، والعقل - كما برهنا عليه سابقاً - فان هنالك أيضاً أشياء كثيرة اخرى لا يستطيع العقـل لها تفسيراً ، ولا يدرك ما وراءها من حكمة :

ما هو الغرض من وجود هذا الكون الضخم الذي يبدو وكأنه لا نهائي ، ما هي الحكمة في وجود هـذه الاجرام السماوية التي تساوي في تعدادها ، كما يقول جيمز جينز ذرات الرمال في جميع شواطىء المعمورة ، وأنّ واحدة منها ، واحدة فقط ، تستطيع ان تبتلع في جوفها مئات الملايين من امثال كرتنا هذه التي نعيش عليها ؟

ماذا تساوي هذه الارض بالنسبة لهذا الكون ، بـل ماذا يساوي تاريخ الانسان كله من اوله الى آخره ، بالنسبة لتاريخ بدء المخلوقات جمادات كانت او حيوانات ؟ وكيف يجيء ، وفي آخر الزمان ، هذا الجنس البشري ، فيستأثر بهذه الأهمية ، فيكون سيد الكائنـات على

الاطلاق ، ومحط العناية الإلهية ، ومهبط الوحي السماوي ، دون سائر الأحياء ، ولماذا في آخر الزمان ، وليس في اول بدء الخليقة .

الى ما شاكل ذلك من الاسئلة :

وفوق هذا وذاك ماذا تقول في هـذا الشر ، هـذا الشر الذي يغمر الكون من أقصاه الى ادناه ، ماذا تقول في هـــذه الكوارث ، وهذه المحن ، وهذه المصائب ، وهذه الآلام ؟ وهـــل هنالك تفسير واحد لها : او حكمة واحدة من ورائها ؟

زلزال واحـد يقضي على آلاف السكان ، وفيهم الأطفـال والعجزة والابرياء ..

فيضان واحد يبتلع مئات الأسر ، وتزهق فيه الألوف من الأنفس .

وباء واحد يسرى في الأمة سريان النار في الهشيم .

دعك من المسائل التي تخص الأفراد ، والتي جربهـــا كل أحد في خويصة نفسه ، فضلاً عن أن يشاهدها في غيره .

فاذا أضفت الى ذلك سلطان العلم ، والشوط الذي قطعه في اخضاع قوى الطبيعة ، وتخفيفه لويلاتها ، رأيت ان ما وافق الحكمة والعقل مما يجري في الكون انما جاء عن طريق المصادفة ، ليس غير ..

هكذا يقول الملاحدة ، وبمثل هذا يتذرعون ، وأظن ان هذا أمضى سلاح لديهم يخوضون به المعركة ، وأقوى حصن عندهم يلجأون اليه كلما حمي الوطيس ، واعوزتهم الوسائل والحيل .

اما ان هنالك أشياء في الكون لا يدركها العقل ، او لم يدركهـا بعد ، فهذا ما لا يماري فيه احد ، ولكن متى كان العقل قادراً على فهم كل شيء ؟ ومن قال ان العقل يستطيع ان يعمل في كل ميـــدان ، ويتخطى كل حاجز ، ويصل الى نهاية كل شوط .. هل استطاع العقل ان يدرك حقيقة ابسط الأشياء ، واكثرها صلة به ، واشدها تأثيراً فيه ، اذن كيف نطلب منه ـ وهو لم يتجاوز مرحلة الطفولة بعد ـ ان يدرك كل اسرار الملك والملكوت والغيب والشهادة والايجاد والتكوين .

أيغالط هؤلاء القوم أنفسهم بهذا الكلام ، أم يغالطون الواقـــع الملموس ؟ انهم يقولون ، ونحن نقول معهم ، ان الأرض كلها لا تساوي ذرة واحدة من جميع الرمال ، في جميع شواطىء المعمورة ، اذا قيست بما عداها من الاجرام[1] ، فماذا يكون عقل اكبر ملحد ، او عقول جميع الملاحدة ، او عقول الناس كلهم بالنسبة لهذه الذرّة ، فضلاً عن الكون بكل ما فيه ؟!

فلماذا لا تكون مشكلة الشر من المسائل « المعلقة » التي لم يجد العقل حلاً لها ، او لن يجد الى حلها من سبيل .. لو استطاعت نظرية التطور ومعها المصادفة (او حساب الاحتمالات) لو استطاعت احداهما ان تؤكد ان ما نشاهده من تنظيم وتدبير وصحـــة في كثير من مظاهر الكون لا يحتاج الى عقل يدبره ، وقوة تديره ، واله ينظمه لو استطاعت احداهما ان تؤكد ذلك لكان من المستساغ ان نفهم ان الشر مما ينفي وجود الله عز وجل اما وقد ثبت عجز نظريـة التطور والمصادفة عن انكار وجود الله فلا بد من تفسير لهذا الشر يتلاءم مع ما تثبته مظاهر

---

(١) انظر The Mysterious Universe للعلامة James Jeans صفحة •

الخلق والتدبير في الكون من وجود الله عز وجل لا يهمنا ان نستطيع ذلك أو لا .

يقول ايونج Ewing .

في كتابه Fundamental Questions of philosophy .

« ويعترض علينا بان وجود اله قادر كريم يناقض وجود الشر في العالم ، ولكن هذا الاعتراض على اسوإ احتمالاته لا يمكن ان يبطل وجود الله ، لاننا قد نتصور الله محدوداً تحده العقبات التي تحول دون القضاء على الشرور »[1] .

وتصور الله محدوداً تحده العقبات أمر ترفضه الأديان بطبيعة الحال ، ولكن لا يمكن ان يكون لهذا الرفض ادنى قيمة من الناحية العلمية ما لم يكن هناك حكمة من وراء هذا الشر وما لم يكن هناك سبب يدعو إليه يقبله العقل ، وغرض لا يتحقق الا به على الا يكون هناك ادنى تحديد لقدرة الله المطلقة في الخطة التي ارتضاها لتحقيق هذا الغرض — وهذه هي المهمة التي اضطلع بها الفلاسفة الإلهيون من قديم الزمان وقالوا فيها ما قالوا مما تناقلته عنهم الاديان وتناولته العقول بالتعديل والتبديل والتفصيل ، وبالرغم من وجاهة ما قالوا ، وقوة ما قدموا ، فان مشكلة « الشر » فيما يبدو ما زالت بكرا لم تفض ، ولغزا لم يحل ، وسراً من سر القدر الذي استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه احداً من الملائكة المقربين ولا الانبياء المرسلين وما اصدق قول المرحوم الاستاذ الكبير العقاد حين قال « انريد كوناً كهذا الكون الهائل لا عقدة فيه ، ولا ينطوي على سر مجهول وراء حجاب .. ان كان هذا مرادنا فليس

(١) انظر عقائد المفكرين للعقاد صفحة ٧٣ (مكتبة الانجلو مصرية) .

بالعجيب الانجاب اليه »[1] .. ولكن هذا لا يمنع ان نلقي دلونا مع الدلاء علنا ان نسير بالموضوع ولو خطوة واحدة الى الامام ..

الحكمة في وجود الشر في العالم

الكلام عن الحكمة في وجود « الشر » معناه الاجابة عن « لِمَ ؟ » و « العلم » لا يُسأل « لِمَ ؟ » وانما يسأل « كيف ؟ »[2] .

وما دام الأمر كذلك فلا مفرّ من ان نترك العلم جانباً ريثما نرجع الى الدين نستفتيه في هذا الشر ، والحكمة منه ، والغرض الذي يخدمه ، ثم بعد ذلك نـُعَرّج على العقل ، نستمع الى كلمته في هذه الاجابة .

ولا يمكننا ان نطمئن – اطمئناناً علمياً – لأي اجابة يتقدم بها اي دين في هذا الشأن ، ما عدا الدين الاسلامي ، وذلك لسبب واضح صحيح ، وهو ان الفلسفات التي نشأت فيها الاديان ـ السماوية ـ الاخرى كاليهودية ، والمسيحية ، او التي امتزجت بها ، وتفاعلت معها ، هذه الفلسفات قد يكون لها اثر ، كبير او صغير ، اثر ، ان لم يكن مقطوعاً به ، فهو محتمل ، في تحوير ما جاءت به هذه الأديان او صبغه بالصبغة المنطقية التعليلية الفلسفية ، ومجرد احتمال هذا الاثر يقضي على الطمأنينة العلمية قضاء مبرماً ! ـ أما القرآن الكريم فانه نزل في بيئة هي أبعد

---

(١) انظر عقائد المفكرين للعقاد صفحة ٧٨ .

(٢) يقول Joad في كتابه Recovery of Belief ص ٧٨ .

« Science, describing the phenomena of the ratural world, tells us how they occur, but cannot tell us why they occur as they do. »

ما تكون عن التحليل المنطقي المنظم ، والتعليل الفلسفي الشامل ، ولذلك فان ما جاء فيه يعتبر ـ او يمكن ان يعتبر ـ الرأي الذي يطمئن الباحث الى انه رأي السماء ، او رأي الدين ، خالصاً ، نقياً من اي شائبة من شوائب « الأرض » او تخيلات الفكر الانساني « المغرض »

تعتمد حكمة الشر في نظر الدين على الجزاء .

والجزاء يعتمد — مع العدل على الحرية[1] .

والحرية تحتاج الى توجيه ، وتحديد ، والا أصبحت فوضى .

وكل ما جاء في الدين — او في القرآن الكريم على الأخص - من تعليل للشر ، لا يعدو هذه الاسس ..

فالجزاء - العادل - يتطلب تمييز مراتب الناس وتعيين اقدارهم ، لينال كل منهم الجزاء المناسب له — من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ؛ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره — وتمييز المراتب والأقدار يقتضي « الامتحان » ، او ما يسميه القرآن « بلاء » أو « فتنة » — « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » — احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم .. »

ولما كان الجزاء في دار غير هذه الدار ، كانت الدنيا هي حلبة السباق ، ومحل الفتنة والبلاء ، فكانت الشدة ، ليتميز الصابر ، وكان الموت ليعرف الشهيد ، وكانت كل صفة من صفات الكمال ، ويجانبها ما يناقضها من صفات النقص ، لتتميز الأقدار ، وتتعين المراتب ، ولكل مرتبة يريد الانسان اجتيازها « امتحان » خاص ، يتناسب مع درجتها

(١) انظر الفصل الخاص بالقضاء والقدر في هذا الكتاب .

في سلم الكمال ، ولذا ورد في الحديث الشريف : اشدكم بلاء الانبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل :

ولا معنى للامتحان ، اذا لم يكن للمُمْتَحَن حرية [1] بحيث يفعل ما يشاء او يَدَعُ ما يشاء محتملاً ما يترتب على العقل او الترك من نتائج « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ... ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » ؛ « وهديناه النجدين » ... « انا هديناه السبيل اما شاكراً ، واما كفورا » ..

وما دامت هناك حرية ، فلا بد من « اجتهاد » ، وما دام هناك اجتهاد ، فلا بد من خطأ ، وما دام هناك خطأ فلا بد من توجيه ، او تربية ، وما دام هناك توجيه او تربية فلا بد من تأديب ، والتأديب يتضمن الألم ، المعبر عنه بالشر ..

فالشر كما ترى يخدم غرضين : الغرض الأول تمييز المراتب والاقدار ليقوم الجزاء – في الآخرة – على اساس عادل ، والغرض الثاني هو التربية والتأديب الذي يعيد المرء – إذا كان عاقلاً – الى الله كلما ابتعد عنه ، ويرجع به الى السلوك الافضل كلما تنكب جادته .. يقول الله تبارك وتعالى « وبلوناهم بالحسنات ، والسيئات لعلهم يرجعون » – ولنذيقنهم من العذاب الأدنى – أي في الدنيا – دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » .

وهذا يتفق مع ما جاء في دائرة المعارف البريطانية :

---

(١) انظر الفصل الخاص بالقضاء والقدر في هذا الكتاب .

If we are « hedonists », believing that good means pleasure and the absence of pain, the teleological argument will have little weight. The universe is plainly not designed to afford the geatest possible degree of pleasurable feeling. If, on the other hand, we conceive that value means the development of spirititual and moral persons, the argument will appear in a different and more favourable light. »

فالشر ، إذن ، هو الثمن الذي يدفعه الانسان لهذه الحالة « الانسانية » التي تفرق بينه وبين غيره من جماد او حيوان ، او بمعنى آخر هــو الضريبة لهذه « الحرية » التي يمتاز بها الانسان ، والتي تتضمن كل معنى فسر به العلماء « الامانة » التي عرضها الله تعـــالى « على السموات والارض والجبال فابَيْنَ ان يحملنها ، واشفقن منها ، وحملهـــا الانسان .. »

ومسئولية هذا الشر تقع على عاتق الانسان وحـــده ، دون غيره « وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ، ويعفــو عن كثير » — « ما اصابك من سيئة فمن نفسك » — « ولو ان أهل القرى آمنوا ، واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض » — « ولو انهم أقاموا التوراة ، والانجيل ، وما انزل اليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم » — « وان لو استقاموا على الطريقـــة لاسقيناهم ماء غدقا » .

ولا يلقي القرآن الكريم هذا الكلام على عواهنه ، وانما يأتي بالأمثلة الحية من التاريخ ، ومن الواقع ، لتقوم مقام البرهان على صحة ما يذهب اليه ، ولتكون مصدر عبرة ، وعظة ، لاولى الالباب « لقد كان لسبأ

في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط ، واثـــل ، وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور .. »

وغير ذلك كثير ، مما لا يستطيع التاريـخ تكذيبه ، ومما فصـله القرآن في سور عدة ، ومناسبات كثيرة ، وأجمله في قوله : ولقـد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزي القوم المجرمين ..

ويضرب الله تعالى امثلته من الواقع لتأكيد هذه القاعدة . نكتفي منها بقوله تعالى ، هو الذي يُسيّركم في البحر ، حتى اذا كنـــتم في الفلك ، وجرين بهم بريـح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريـح عاصفة ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا انهم أحيط بهـــم ، دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ، يأيها الناس انما بغيكم على انفسكم .

* * *

والشر يمكن تقسيمه الى نوعين ، نوع يكون من فعل الانسان نفسه كالحروب ، وما يدخل تحتها ، وما يتسبب عنها ، ونوع لا حيـلة للانسان فيه ، كالأوبئة ، والزلازل ، وما يجري هذا المجرى .

وعمل « الدين » في النوع الاول واضح ، وصلته به جليّة ، وليس هناك شك عند العلمـاء في ان النفوس لو صلحت او أصلحت لانقرضت الحروب او قلّت ، او ـ على الاقل ـ اختصرت هي وأخطارها في اضيق دائرة ، وكلما اتسعت الشقـة بين النـاس وبين الدين زادت

الحروب عدداً ، وضراوة ، ولا ادل على ذلك من الحربين العالميتين الأخيرتين ، وموجة الالحاد العاتية التي طغت على العالم قُبيل نشوبها ، والتي تتهدد العالم بحرب ثالثة لا تكاد تبقي ، ولا تذر .

والعلماء الذين يريدون ان يجنّبوا الانسانية ويلات هذه الحرب لا يجدون وسيلة اجدى من اصلاح « النفوس » .. يقول العلامة الفيلسوف C. E. M. Goad في كتابه Recovery of Belief صفحة ٦٢ ما نصه بالحرف الواحد :

"He" — Dr Brook Chisholm, Director of the world Health Organisation appointed under U. N. O. — « rightly sees that the source of war is in the human heart. It is because men desire wrongly, will wrongly, and have unregenerate instincts that there is war. The problem, then, is to correct or at any rate to redirect these undesirable tendencies in human nature ...... »

قال العلامة Goad [1] ، ان هذا البحث الذي كتبه الدكتور Chisholm والذي يدور كله حول هذه المشكلة ، اثار ضجة صاخبة في المحيط العلمي ، واختلف معه « النقاد » في اشياء ، واتفقوا معه على اشياء ، ولكنهم أجمعوا معه على ان مشكلة الحروب هي مشكلة اصلاح النفوس .
ـ اقول ومهما تتشعب نواحي اصلاح النفوس ، وتتعدد وسائله ، فانها لا تخرج من إطارها العام ، الذي هو ـ اولا وآخرا ـ الدين .. وهذا الذي قال به هذا « الدكتور » ، ووافقه عليه جمهرة النقاد من اهل الاختصاص نادى به الاسلام قبلهم باربعة عشر قرنا .. (ان الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم) . قرآن كريم .

(١) نفس المرجع والصفحة .

والذي يهمنا من كل ذلك وضوح العلاقة بين الحروب والنفوس .

صحيح ان الصلة بين « القانون » الروحي – او الاخلاقي – وبين الصنف الآخر الذي حددناه من الشر ، والذي يتضمن ما لا يدخل في دائرة فعل الانسان ، كالأوبئة ، والبراكين .. هذه الصلة فعلاً غير واضحة ، ولا يستطيع العقل – او لم يستطع بعد – ان يثبتها او يَتَبَيَّنَها ؛ وهذا لا يستلزم أنها غير موجودة ، بل يرجع الى امرين ، احدهما ، او كليهما : –

الأمر الأول :

ان هذه الصلة من الامور المعنوية التي تخرج عن نطاق « العلم » ، ولا تدخل في ميدانه ؛ فهي ليست من اختصاصه حتى يتعرض لها بنفي او اثبات :

الأمر الثاني :

وعلى فرض ان هذه الصلة مما يدخل في دائرة العلم بطريق مباشر ؛ او غير مباشر ؛ فان المسلم به ان العلم ما يزال في مرحلة الطفولة ، وان الحقائق التي كشف عنها – حتى في الميدان المسلم له به – ما هي الا برهان على انه ما يزال في بداءة الشوط [1] .

على انك لو نظرت الى ما في « دائرة » الشر من مظاهر الضبط والتنظيم التي يقر العلم نفسه بها ، لما وسعك الا ان تؤمن ان هذا

---

(١) انظر الفصل الخاص بذلك في الحلقة الثانية من هذه السلسلة .

الشر ابعد ما يكون عن « الفوضى » التي قد تبدو لك فيه ، وانه يسير وفق قانون خاص ، لا يهمنا ان يكون معلوماً او مجهولاً ما دامت آثاره واضحة ، ونتائجه ملموسة ..

خذ مثلاً ذبابة التسي تسي ...

لماذا ينحصر ميدانها في المناطق الحارة وحدها ؛ ولماذا لا تتكاثر ، وماذا يمنع – من الناحية النظرية المجردة – ان تتكاثر ، وتتكيف ، كما تكيف غيرها ، وتعيش في غير المناطق الحارة ، ايضاً كما عاش غيرها ، وتعرض الجنس البشري بذلك الى الفناء ؟

وبعوضة الملاريا ؛ وبعوضة الحمى الصفراء ؛ وغيرهما من حاملات الاسقام ؛ ونافثات الاوبئة .

أهنالك ما يمنع – من الناحية النظرية – من غزو هذه الحشرات الفتاكة ، وامثالها لهذا العالم اجمع بحيث تكون لها السيادة التامة ، والسيطرة الكاملة عليه ؛ وماذا تكون النتيجة اذن ؟

واحدة من اثنتين ...

اما أن يفنى بنو الانسان عن بكرة ابيهم ، ولا يبقى منهم احد .. واما ان يتداركهم اللطف ، فيكتسبوا المناعة التامة ضد ما تنفثه هذه الحشرات من سموم ؛

ولولا أن ما يصيب البشرية جمعاء من شرور مقدر تقديراً خاصاً ، ومضبوط ضبطاً محكماً ، لما بقي على وجه البسيطة اليوم انسان واحد .

والا فماذا كان يمنع الكليرا او الطاعون او اي وباء آخر من

اكتساح امة باكملها في الأزمان الغابرة حيث كان الجهل بالقواعد الصحية تاماً ، وبالطب الوقائي مُطبِقاً ..

وكيف استطاع الانسان ان يصمد في وجه التغيرات الطبيعية التي واجهته ، كالموجة الجليدية ، وما شاكلها ، وأن يفلت — بالمثل — من أسر آكلات اللحوم ، ونافثات السموم ، وهو من أضعف المخلوقات ، ان لم يكن اضعفها واحوجها الى الوقاية ، كيف استطاع الانسان ان يفلت من كل هذا ، وان يبقى حتى الآن ، لولا ان الشر يمشي في الكون على قدر مقدور ، وخطة مرسومة ، وماذا كان يمنع من انقراض الجنس البشري من الوجود ، ألم ينقرض ما هو اعظم منه من الحيوان ، كالدناصر[1] ، وما هو اكثر عدداً منه كالحمام المسافر[2] ، ألم تنقرض غير هذا وذاك ملايين ، من الحشرات ، والأسماك ، والطيور ؟.

أليس في ذلك البرهان كل البرهان على ان الشر يمشي على قدر مقدور ، ووفق خطة مرسومة ؟

واذا كان ذلك كذلك ، فماذا يمنع العقل من قبول التفسير الذي أورده الدين عن الشر ، والغرض الذي يخدمه ، والاساس الذي يقوم عليه ، وإلا فكيف تفسر هذه « التنظيمات » التي ذكرنا طرفاً منها في « دولة » الشر ؟

المصادفة ؟

---

(١) نوع من الحيوانات الضخمة التي انقرضت منذ زمن بعيد .

(٢) نوع من الحمام آخر واحدة منه ماتت في هذا الصدد ، ويعتقد انه كان في وقت ما اكثر عدداً من البشر ، وموطنه امريكا الشمالية .

قد بينا خطل هذا الرأي ، وفساده في فصل مستقل ..

على انك قد تعترض بما يحيق بالاطفال والبهائم من شرور ..

وهو اعتراض — في حد ذاته — وجيـــه ، فان حكمة الشر كما أوردناها تدور مع الجزاء ، والجزاء بدوره يدور مع التكليف ..

ولم يقل احد — ولا دين — ان الاطفال — بَلْهَ البهائم — مكلفون ! فكيف نحل هذه الأشكال ؟

لقد اشار القرآن الكريم — في ايجازه المعروف — الى الحكمة فيما يصيب الأطفال من شرور .

« فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنمـا يريد الله ليعذبهم بهـا في الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون — » التوبة آية ٥٤ .

« ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا وتزهق انفسهم ، وهم كافرون » — نفس السورة آية ٨٤ .

هنا تطل مشكلتان :

المشكلة الاولى :

هاتان الآيتان الكريمتان نزلتا في حق اولاد المنافقين والكفار .. فهل أبناء المسلمين في مأمن من الشرور .. الواقع يكذب ذلك .

المشكلة الثانية :

صحيح ان ما يحيق بالأطفال من شر فيـــه تعذيب أليم لوالديهم ،

ولنفرض – وهو الصحيح – أن هؤلاء الوالدين يستحقون هـذا القدر من هذا اللون من العذاب المعجل ، فما ذنب الأطفال الأبرياء ، الغير المكلفين بطبيعة الحال ، أيؤاخذون بما اقترف والدوهم من الآثام ، ألم يقل القرآن الكريم نفسه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

* * *

الاجابة على المشكلة الأولى :

ان ابناء المؤمنين – المتدينين – وابناء الكفار جميعاً سواء في التعرض للشر في الدنيا .. وقد يكون أبناء المتدينين – في ظروف مختلفة – أشد عرضة ، ولكن العذاب الذي يصيب الوالدين الكافرين باولادهم ، أمضّ وآلم مما يصيب الآباء المتدينين .. ذلك لأن المتدين يجد من نسمات ايمانه بالله ، ما يلطف له وهج البلاء ، ويضيق من مجاريه في نفسه ، فايمانه بالعدالة الالهية ، وايمانه بتدبير الله الذي هو في نظـره – وفي الواقع بالمثل اعظم من تدبيره هو ، وايمانه بما سيوفّاه من الأجر في مقابل هذا البلاء ، وايمانه بأن الآخرة خير ، وأن هـذا من الغرس الذي سيؤتي أكله فيها .. كل هذه ، وغيرها ، تكسر من حدة البلاء وتطفي من لهيبه ، بل وتكاد تقضي حتى على الاحساس به .. بخلاف الكفار ؛ وهذا التفاوت ملحوظ ومشاهد حتى بين المتدينين انفسهم ، فانك تجد اكثرهم جزعاً ، واقلهم احتمالاً – عادة – هم اضعفهم إيماناً واكثرهم انصرافا الى الدنيا ، وأقلهم اهتماماً بالآخرة .

وعلم النفس نفسه يؤيد ذلك ، وفي التاريخ شواهد عديدة لا نريد ان نطيل بذكرها .. خذ على سبيل المثال – الخنساء في الجاهلية تبكي على صخر ، اخيها لأبيها ، حتى تفقد بصرها ، وفي الاسلام تفقد ابناءها

الأربعة في موقعة واحدة ، فلا تذرف دمعة واحدة .. امرأة من بني عبد الأشهل تفقد أخاها وزوجها وولدها ، كل اولئك في موقعة احد ، فلا تهتم الا بحياة الرسول « صلوات الله وسلامه عليه » .. ابو دجانة رضي الله عنه يترس بظهره — في أحُد — ليحمي رسول الله « صلى الله عليه وسلم » من نبال المشركين .. دعك مما في اقوال الصوفيـة — الصادقين — من استعذاب للعذاب ، واستراحة الى الألم ، ومما في اقوال العُشاق ! كل ذلك وغيره يكشف لك عن اثر الدين في تخفيف وطأة البلاء ، والحدّ من دائرة الاحساس به ، على الاقل ..

الاجابة على المشكلة الثانية :

صحيح ان المرء في المراحل السابقة للتكليف لا ذنب له — من الناحية الدينية — ولكن من رحمة الله به ، واحسانه اليه ، أن لم يحصر كل ما يستحقه من العقوبة في الدنيا في المدة التي تلي التكليف وحدها ، وانما فرّق هذا المقدار نفسه — من غير زيادة — على جميع مراحل حياته ، بما فيها مرحلة الطفولة ، ولا يخفى ما في هذا من التخفيف ..

لا يرد على هذا بأن كثيرين من الاطفال يموتون قبل أن يبلغوا أشدهم ، ويصلوا الى مرحلة التكليف ، فان الله تعالى يعلم ما سيكون منهم ، لو عاشوا ، فيعفو عما يشاء ، ويؤاخذ بما يشاء ، حسب ما يقتضيه تنظيم الكون ، ويتطلبه مجرى العدالة العامـة فيه ، وبذلك يخلص لهم ما سيلاقونه في جواره تعالى من الرحمة والنعيم كأنهم عاشوا ، ولم يقترفوا ذنباً من الذنوب .. ولم تعد مسألة علم الله لما سيكون مشكلة ، بعد ان كشف العلم عن « التنظيمات » الوراثية التي تتحكم في مصير كل حي ، وعليها وحدها يترتب ما سيجد — في المحيط الذي يعيش فيه —

ما « سطر » له من سعادة او حرمان ، على اساس من العـــدالة الالهية متين .

* * *

على أننا نخطىء ـ من غير شك ـ حين نقيس آلام غيرنا بمقاييسنا سواء كان هؤلاء الغير من الأطفال ، ام من البهـــائم ، ام حتى من امثالنـــا نحن الذين بلغنـــا مرحلة النضوج الخلقي ، والاستـــواء التكويني .. فان درجة الإحساس بالألم تختلف حتى عند افراد النوع الواحد ، بل حتى في اجزاء الجسم الواحـد .. والعلم نفسه لا ينكر ذلك ، بل يقره ويرجعه الى مراكز الاحساس والجهاز العصبي ، واختلاف تكوينها ، او تهيئتها ، باختلاف الأفراد ، واختـلاف العوامـــل ، واختلاف الظروف ..

ولنأخذ على ذلك مثالاً .. من العلم نفسه !

يقول Professor Wheeler وهو حجة في علم الحشرات الاجتماعية :

« While an ant is feeding on nectar or syrup, her abdomen may be snipped off with a pair of scissors, without interrupting her repast. » (1)

فقياسنا لآلام الحيوان بمقاييسنا نحن ، قياس فاسد ، على ما ترى :

وفاسد مثله قياسنا لآلام الأطفال بنفس المقاييس ، فان الأطفـال ناقصو التكوين بالنسبة لنا ، وهل يستوي ناقص التكوين وكامله ، إلا اذا نضب معين الأمانة ـ العلمية ـ واختل ميزان الانصاف :

---

(١) انظر كتاب Social Life among The insects صفحة ١٢ Constable .

بل لك ان تذهب أبعـــد من ذلك ؛ ان كل كائن حي يشكل « عالماً » مستقلاً ، لا يقاسُ عليـــه ، ولا به ، في مـا يختص باحتمال البلاء .

فالأم التي ذبح وحيدها في حجرها ، والتي تقيسها انت بمقياسك ، وتظن ، ويظن الناس معك ، أنها ستموت عليـــه كمداً او انتحاراً ، لا تلبث ان « تخيب ظنك » وتشق طريقها في الحياة كسائر البشر ، وربما بدت عليها امارات السعادة في حدود الوضع الجديد ...

والرجل الهرم الذي فقد شبابه ، وفقد كل أسباب المتعـة كان – مثلك – يعتقد أنه لن يسمح للموت ان يتركه حتى يصل الى هذه المرحلة ، فاذا به يستريـح اليها ، ويطمئن بها ، ويجد فيها ، حسب مقاييسه الخاصة ، نوعاً من الراحة ، والدعة ، والسعادة !

والمجذوم الذي كان – وهو صحيح الجسم – يرى – بمنظاره الخاص – ن الموت في اي صورة من صوره ، افضل بكثير من داء الجذام ، عادت نفسه فتكيّفت – في واقعها الجديد – تكيفاً خاصاً ، وأصبحت تؤثر الحياة على أيسر صورة من صور الموت !

وقل مثل ذلك ، في المقعد ، في الأعمى ، في الأصم ، في المدقع ، في العقيم ، في كل مبتلى بأي نوع من انواع البلاء .

غريزة حب البقاء ؟

نحن لا يهمنا ان تكون هي او لا تكون . وانما الذي يهمنا منهـا هنا هو هذه القابلية للتكيف Adaptability التي مُنِحَتها النفس البشرية ، والتي تمكنها من استخلاص احسن ما يمكن ، من اسوأ ما يكون ،

والتي هي في الواقع بمثابة الترياق المضاد للبلاء ، والتي تجعـــل من كل « نفس » « عالما » مستقلا لا يقاس به ، ولا عليه .

ولذلك وجد فريق من الناس يستعذبون العذاب ويستريحون الى الألم .

بل ووجد فريق من الفلاسفة ينكرون الشر على الاطلاق .

وبين هؤلاء واولئك وجدت طائفة من المفكرين ، نظروا الى الشر في الكون ، واقروا ما يتسبب عنه من شقاء ، ولكنهم اخطـأوا في تحقيقه ، وبالغوا في تصويره ، وكان مرد ذلك الى « المقياس » الذي به يقيسون والمنظار الذي منه ينظرون .. يقول العلامـــة العالمي الغني عن التعريف .

Alfred Russel Wallace ما نصه بالحرف الواحد [١] .

« Now that the war of nature is better known, it has been dwelt upon by many writers as presenting so vast an amount of cruelty and pain as to be revolting to our instinct of humanity. Now there is, think, good reason to believe that all this is greatly exaggerated ; that the supposed (torments) and miseries of animals have little real existance, but are the reflection of the imagined sensations of cultivated man and woman in similar circumstances and that the amount of actual suffering caused by the struggle for existance among animals is altogether insignificant.

ومن هنا نرى ان الأهمية التي ينسبها بعضهم الى الشر ، مبالغ فيها ، وتستند على قياس فاسد ، واساس غير سليم .

* * *

(١) انظر كتاب Darwinism طبعة ماكملان سنة ١٨٨٩ صفحة ٤٠ .

يجدر بنا ، وقد وصلنا الى هذه المرحلة ، ان نقف قليلا لنستعرض في ايجاز بالغ النقاط الرئيسية التي عالجناها فيما سبق :

أولا : ان وجود الشر ، لا ينفي وجود الله ، وتنحصر اهميتـة في دائرة صفة ، او اكثر من صفاته تعالى ، حاشا صفة الوجود .

ثانياً : الشر لا ينبع من الفوضى كما يتبادر الى اذهان البعض .

ثالثاً : تدور حكمة الشر ـ في نظر الدين ـ مع الجزاء والتكليف من ناحية ، وتمييز الأقـــدار والمراتب من ناحية اخرى ، والعلم لا يستطيع ان ينكر ذلك .

رابعاً : ما يصيب الأطفال والبهائم لا ينقض هذه الحكمة .

خامساً : الأهمية التي تنسب الى الشر مبالغ فيها ، ومبنية على غير قياس ، خاصة اذا نظرت الى ما مُنِحَتْهُ كل نفس من قابلية للتكيف بحيث نستخلص احسن ما يمكن ، من اسوأ مـا يكون ، حتى إن طائفة من اهل الفكر والنظر انكرت وجود الشر على الاطلاق .

* * *

على ان للشر مزية اساسية لا يستغنى عنها في تمييز القيم ، مثـــل مزيته في تمييز المراتب والأقدار ، وإلا فكيف تدرك معنى الغنى اذا لم تذق مرارة الفقر ، وكيف تحس لذة الشبع ، اذا لم يُمِضَّك سعار الجوع ، وكيف تعرف قيمـة السعادة اذا لم تكتوِ بنار الحرمان والشقاء .. الى غير ذلك من الاضداد .

* * *

يبقى بعد ذلك سؤال :

لماذا لا يُسَيِّرُ الخالق – جلت قدرته – هذا العالم على نظام افضل من هذا النظام ، ألم يقل انه على كل شيء قدير ؟

والذي يسأل هذا السؤال يبني افضلية النظام الذي يريده على أساس خلوه من الشر ، جملة وتفصيلا ..

وهذا هو منشأ الخطأ .

فإن الحكم لأي نظام أو عليه ، لا يتوقف على خلوه من عنصر الشر ، ولا من تَضَمُّنِهِ له ، وانما يتوقف على « الغرض » الذي يهدف ذلك النظام إليه ، إذ أن الغرض – في الواقع – يحتم الوسائل الممكنة او اللازمة لتحقيقه ، ولا يبقى للنظام الا انتقاء هذه الوسائل ، واستخدام ما يصلح منها ، في الموضع المناسب ، في الوقت المناسب ، بالكيفية المناسبة .

وعلى طريقة انتقاء هذه الوسائل واستخدامها ينبني الحكم للنظام او عليه .. فقد يتخذ نظام ما طريقة رديئة لا يتصور العقل اردأ منها ، وقد يتخذ ما شاء – او شيء له – من طرق اخرى تتفاوت في بعدها عن الرداءة ، واقترابها من الجودة ، حتى تنتهي آخر الأمر الى طريقة مُثلى لا يتصور العقل احسن منها ، لكن بالنسبة لتحقيق ذلك الغرض الذي يهدف النظام اليه .. واذا كان العقل لا يتصور ما هو احسن منها ، كان من البديهي الا يطالب به .

والعقل – بوضعه الراهن – لا يستطيع ان يقول ان الطريقة التي يسير عليها نظام الكون الآن هي طريقة رديئة ، ولا يستطيع – بالمثل – ان ينفي أنها الطريقة التي لا يتصور العقل أحسن منها [1] ، وليس

(١) انظر الفصل الخاص بذلك في الحلقة الثانية من هذه السلسلة .

له في هذا او ذاك مستند يستند عليه .

صحيح ان الشر الموجود الآن في الكون - بالرغم مما قلناه عنه - لا يعجب العقل ، ولا يرضيه ؛ فليكن ! ولكن هذا الشر نفسه ضروري لتمييز المراتب والاقدار ، وعليه يتوقف الجزاء عاجلاً ، وآجلاً ، فهو بذلك يخدم الغرض الاساسي الذي قامت من اجله النشأة الانسانية على ظهر هذا الكوكب الارضي .

وإلا فكيف تميز الصابر ، اذا لم تكن الشدة ، وكيف تعرف الطائع اذا لم يكن التكليف ، وكيف تفرق بين مراتب التضحية ودرجات الكمال ، اذا لم يكن هنالك البلاء - الثمن - المناسب لكل مرتبة .

ان الله على كل شيء قدير ، ما في ذلك شك ، واذا كنت تريد برهاناً على قدرته المطلقة ، بخلق عالم خال من الشر ، فقد خلق الله تعالى عالم الملائكة ، وليس فيه بالنسبة للملائكة شر ، وان قل ، وخلق عالم السعداء من بني الانسان في البرزخ ، وفي الجنة ، وكله سعادة وهناء ، والعلم لا يستطيع - او لم يستطع بعد - ان ينفي ذلك ، بطبيعة الحال .

وعليه ، فلا يبقى للانسان - اذا لم يعجبه الشر - الا واحدة من اثنتين :

الأولى : ان يفضل العدم على الوجود .

الثانية : ان يفضل الوجود ، لكن بشرط ان يكون من الملائكة ، لخلو عالم الملائكة من الشرور .

اما تفضيل العدم على الوجود فأمر يكذبه الواقع ، وفي غريزة حب البقاء التي يقول بها العلم نفسه اكبر برهان ..

وليس في الانتحار حجة لمن أراد ان يعترض .

فان نسبة الانتحار – اولاً – ضئيلة لا يقاس عليها[1] .

ثانياً – ان المنتحر – في نظر الدين – استوفى اجله المقدر له ؛ ولو لم يكتب له ان يموت منتحراً ، لـكـُتـِبَ له سبب آخر ، يميته في تلك اللحظة ، التي مات فيها منتحراً ، كالسّكتة القلبية ، او الحمّى ، او اي سبب آخر من الأسباب المعروفة (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) (اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) (لكل امة اجل ، فاذا جاء اجلهم فلا يستقدمون ساعة ، ولا يستأخرون) .

وليس عندنا مانع من الاستماع الى العلم في هذا الصدد ، ان كان هذا مما يدخل في دائرة اختصاصه !

على ان فهم الانتحار على هذا الأساس – الديني – يحل كثيراً من المشاكل والألغاز التي يتخبط فيها علماء النفس : ويؤكد – من الناحية الأخرى – صحة وجهة النظر الدينية في تعليل الانتحار :

ينتحر رجل لانه لم يستطع الزواج من امرأة معينة ، وهنالك آخرون كثيرون ، لا ينتحرون ، مع انهم لا يستطيعون الزواج من اية

---

(١) نسبة من يموتون منتحرين ١٤،١ في كل مائة الف في سن العشرين ، الى الرابعة والعشرين ، وترتفع هذه النسبة الى اربعة اضعافها في السن ٥٥ و ٦٤ – وفي الزنوج وفي النساء اقل في جميع المراحل ، اما في دون الخامسة عشرة فالانتحار نادر – انظر دائرة المعارف البريطانية . ص ٥٣٢ – المجلد ٢١ طبعة ١٩٥٣ .

امرأة لعاهة من العاهات ، او سبب من الاسباب ، وقد تكون ظروفهم الاخرى اسوأ بكثير من ظروف المنتحر . اما كان الأولى ان ينتحر هؤلاء أولاً ، فلماذا لم يفعلوا .

وتدل الاحصائيات على ان نسبة الانتحار بين البيض في امريكا ، أعلى بكثير منها بين الزنوج[1] ، مع انه لا وجه للمقارنة بين ظروف البيض والزنوج في امريكا ، حتى ان هذه النسبة لو انعكست لكانت اقل من المنتظر بكثير .. فلماذا لا ترتفع النسبة بين السود ، وتنخفض عند البيض ؟

ونسبة الانتحار بين النساء اقل منها بين الرجال[2] ، وليس معنى ذلك ان ظروف النساء احسن من ظروف الرجال على طول الخط ولعل العكس هو الصحيح .

ومرد ذلك في نظر الدين الى الأجل .

فإن من لطف الله تعالى وأحسانه لخلقه ، حين قدر الشر ، ان وهب النفوس قابلية تتكيف بها حسب الاوضاع ، ما لم يحن حينها ، فاذا حان الحين ، سُلِبَت هذه القابلية ، إن قدر لها ان تموت عن طريق الانتحار ، وأعيضَت عنها القابلية للقاء الموت .

فالانتحار في نظر الدين مسألة « أجل » مسمى ، وليس عند العلم ما ينفي ذلك .

أما ان يفضل الشخص أن يكون ملكاً ، فهذا ما لا يعقل بعد الدراسة والتمحيص .

---

(١) و (٢) انظر دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة Suicide المجلد ٢١ طبعة سنة ١٩٥٣ ، صفحة ٥٣٢ .

فان السعادة — بمقياس العقل البشري — لا توجد ، أو لا توجد كاملة ، في عالم الملائكة ، وان خلا من الشرور ، وان كان الملائكة بمقاييسهم الخاصة سعداء ، سعادة كاملة . ان كثيراً من الملاذ التي تعتبر من دعائم السعادة لبني الانسان ، لا توجد في عالم الملائكة ، لأنها لا تتلاءم مع ما فطر عليه الملائكة ، حسب الغرض الذي اراد الله تحقيقه من عالمهم ، فاذا فضل أحد - بالرغم من ذلك - ان يكون من عالم الملائكة فان سعادته هنالك لو تحققت رغبته ستكون نسبية ، او ناقصة بالمعنى الأصح ، فلا معنى اذن لهذا الفصيل .

وبعد فهذه هي جميع الجوانب — الرئيسية — لمشكلة الشر عرضناها بحرارة المؤمن بها ، ورددنا عليها بما فيه الكفاية ، لمن حكم العقل ولم يضله الله على علم .

والله ولي الهداية والتوفيق .

الباب الثاني

الذات العلية وما يتعلق بها

دائرة « العلم » – الى هذا اليوم – لا تتعدى ظواهر الاشياء ، وما يتصل بهذه الظواهر ؛ أما حقائق الاشياء فما تزال ابعد ما تكون عن متناول « العلم »[1] ؛ فليس غريباً – والحالة هذه – أن تكون حقيقة ذات الله مجهولة شأنها في ذلك – على أقل تقدير – شأن سائر حقائق الأشياء .

ويدخل في دائرة العلم كل ما دخل في دائرة الحس ، وما خرج عن هذه الدائرة فليس للعلم فيه مجـــال – حتى الآن[2] : والذات العلية ابعد ما تكون ايضاً عن متناول الحواس ، ولو بطريق غير مباشر ، فليس للعلم في ادراكها مطمح ، ولا في وصفها مجال ؛

(١) انظر الفصل الخاص بذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب .
(٢) « « « « « « « « « «

وليس الإدراك بالحواس – ولو بطريق غير مباشر – شرطاً في اثبات وجود الأشياء ؛ والا لأنكرنا وجود الالكترونات التي لا تُرى « والتي يُحرِّم الفيزيائيون اية محاولة لرؤيتها »[1] ولكانت الجاذبية والضغط – وما يجرى مجراهما من الأشياء التي لم يكن لها أثر ، ولا حقيقة ، ولا وجود ، الا بعد ان توصل العلم الى الوسائل التي تدخلها في دائرة المحسوسات ؛ وهذا ما لا يقول به عاقل بطبيعة الحال .

على ان العقل البشري لا يهمه من الناحية العلمية في شيء أن يرى الكهرباء ، او الضوء ، او يحس بالجاذبية ، او الضغط ، او ما في حكم هذه ، ولا ان يدرك حقيقتها ، او يتمكن من تصورها ، لأنه يستطيع – بل استطاع بالفعل – ان يستخدمها ، ويبني على اساس معرفته لها ما يريد من النتائج العملية ، دون الحاجة الى رؤيتها او تصورها ، او ادراك حقيقتها ..

ولكن الأمر – فيما يختص بذات الله تعالى – يختلف كل الاختلاف ؛ فليست المسألة هنا مسألة استخدام ، كما هو ظاهر ، ولكنها مسألة معاملة ؛ ولا يَتَأتَّى – عقلاً – أن تقوم المعاملة بين الإنسان ، وأي كائن آخر ، ما لم تكن لهذا الكائن صورة خاصة ، مرتسمة – على اقل تقدير – في ذهن الانسان ، او خيالية ، وما لم تشترك هذه الصورة الذهنية او الخيالية مع البشر في عدد – كبُر أم صَغُر – من الصفات البشرية .

والعلماء المختصون في مثل هذه الابحاث . لا يستثنون الذات العلية نفسها .

---

(١) انظر كتاب مصير البشرية تأليف ليكونت دينوي – مترجم – .

يقول A. C. Bouquet في كتاب Comparative Religions ما نصه :

« The value of any monotheism seems to depend on the extent to which Deity is conceived as being not only transcendent but responsive and disposed to take initiative so that quasi - personal relations can exist between Deity and humanity . When such are absent , the (high) god is a « roi fainéant » and receives no worship » (1)

وهنا تقوم مشكلة من اكبر مشاكل الأديان ، ان لم تكن اكبرها على الاطلاق .

ان مقام الألوهة يقتضي مخالفة الذات العلية لسائر الحوادث مخالفة تامة ، في الجوهر ، وفي الصفات ، وفي الأفعال ، وهذه مرتبة التنزيه ، حيث ان اشتراك ذاته تعالى مع الحوادث في اي صفة من صفاتها ، يقتضي سريان حكم تلك الصفة عليها ، وهذا يناقض الألوهة من كل وجه .

هذا من جانب .

ومن الجانب الآخر نرى أن ضرورة « المعاملة » بين العبد والرب – فيما يقول « Webb » (٢) ونكلسون (٣) وغيرهما – تقتضي تصور الخالق – جلت ذاته – في صورة تلتقي بالصورة البشرية – الكاملة في ناحية ، أو عدد من النواحي ، وهذه مرتبة التشبيه ، وهي ومرتبة التنزيه على طرفي نقيض .

---

(١) انظر صفحة ٤٨ من سلسلة Pelican book طبعة ١٩٥٤ .

(٢) انظر كتاب God and Personality

(٣) انظر « في التصوف الاسلامي وتاريخه » للمستشرق نكلسن ترجمة ابو العلا عفيفي فصل « الشخصية » خاصة صفحة ١٠٨ فما بعدها .

وتختلف الاديان في معالجتها لهــذا الاشكال باختلاف سمُوّها ، وباختلاف العناصر - الأرضية - التي دخلت فيها ..

فالآلهة عند اليونان والرومان لا يختلفون - في الصورة - عن البشر في شيء ، حتى الذكورة ، والأنوثة ، بل حتى في الصفات النفسانيـة مثل الحسد ، والطمع ، والغدر[1] ، وما يجري مجرى هذه الصفات التي لا تليق بالخالق .

والعرب ، وان كانوا مؤمنين بالله تعالى ، وإن كان نحت الآلهة دخيلا عليهم[2] ، فان اعظم اصنامهم في الكعبـة (هبل) كان على صورة انسان ، ومثله كثير من اصنامهم كوُدّ ، وهو صنم عذرة : روى محمد ابن هشام بن السائب الكلبي في وصفه : انه كان تمثال رجــل كأعظم ما يكون من الرجال الخ :

والديانة المسيحية - بحكم الاصل - لم تغفل جانب التنزيه ، ولكنها - بحكم ما طرأ عليها - غلبت جانب التشبيه تغليبا يجتث فكرة الالوهة من اصولها .

يقول C. E. M. Goad في كتاب Recovery of Belief

« If He not a person , we can not think of Him as sending His son in the world to save man kind . » (3)

وتغليب جانب التشبيه في المسيحية الى هذا الحد المنافي للالوهـة

---

(١) انظر صفحـة ١٥٩ من كتاب Ancient world لمؤلفيه Dr. Mowat and Thomas Kelly .

(٢) انظر محاضرات الخضري - الجزء الاول صفحة ٥٤ الطبعة السادسة سنة ١٣٧٠ هـ .

(٣) انظر صفحه ١١٦ .

انما جرّت اليه فكرة « الشخصية الالهية » التي نبتت في المسيحية « من عقيدة التثليث التي تقرر وجود علاقات شخصية في طبيعة الله[١] »

بل لقد رجعت الديانة المسيحية « بالصورة » الالهية الى عهد اليونان والرومان تأمل قول Dr. Winnington - Ingram أسقف كنيسة لندن ابان الحرب العالمية الاولى :

« You have no right to blame god; it is the work of the Devil . God is hindered at every moment by the Devil and all his work; you can not therefore blame our great and glorious god for the defeat of his design (2) .

وليست اليهودية اقل سوءاً من المسيحية في هذا الخصوص ، ولنكتف بمثال واحد او مثالين : جاء في سفر التكوين في قصة اهلاك قوم لوط « ان ثلاثة رجال ، وهم الله وملكان معه ، قدموا على ابراهيم وهو جالس امام خيمته وان ابراهيم قد عرف الله من بينهم ، ورجاه ان يستريحوا عنده قليلاً من وعثاء سفرهم ، وقدم لهم ماء لشربهم ، وفطائر وعجلا حنيذا لطعامهم فانتحى ثلاثتهم تحت ظل شجرة ، وأخذوا يأكلون مما قدمه اليهم الخ[٣] » ..

ووقف الاسلام الموقف الذي ينبغي ان يقفه اي دين سماوي خلص من شوائب « الارض » وكدوراتها .

---

(١) انظر صفحة ١١٦ من كتاب في « التصوف الاسلامي وتاريخه » ترجمة ابو العلا عفيفي .

(٢) انظر The Christian World Pulpit بتاريخ ١٦ فبراير ١٩١٦ .

(٣) انظر مقالة « العقيدة والشريعة في اسفار اليهود » للدكتور علي عبد الواحد وافي - مجلة الرسالة العدد ١٠٢٥ بتاريخ ١٧ ربيع الآخر سنة ١٣٨٣ الموافق ٥ سبتمبر سنة ١٩٦٣ م .

أعطى « الالوهة » حقها الكامل المطلق من التنزيه .

وساعد الحس ، او الفطرة ، على تكوين الصورة الضرورية لارساء قواعد المعاملة بين العبد وربه ، مع مراعاته في نفس الوقت لحق الالوهة من التنزيه ، حتى في هذه الحالة من التشبيه .

فهو حين يثبت التنزيه اثباتاً مطلقاً ، لا يلغى التشبيه إلغاءً مطلقاً ، وانما يكتفي فيه بالقدر الضروري مُكافئاً في نفس الوقت بما يقابله من التنزيه .

يقول الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء . ويقول : أفمن يخلق ، كمن لا يخلق ..

ومن القواعد المقررة : كل ما خطر ببالك ، فهو هالك ، والله بخلاف ذلك ، وورد النهي عن التفكر في ذات الله تعالى ، لان هذا — أولاً — لا يأتي بنتيجة ، — وثانياً — لانه يقود الى التشبيه ، والله تبارك وتعالى لا يشبهه من شيء ..

* * *

ومراعاة الاسلام لمقتضيات « الحس » والفطرة في هذا الصدد ظاهرة ، واضحة ، ولكنها بالقدر الذي لا يؤثر في التنزيه — المطلق — الواجب لواجب الوجود ..

وتظهر هذه المراعاة في نواح عدة منها :

١ — الجهة :

مع ان الله تعالى مُنزّه عن الجهة ، فقد جعل له بيتاً يحج الناس

اليه ، كأنهم يجدونه فيه ، وشرع لهم اقامة المساجد التي تسمى بيوته تعالى ، والتي يشعر من أمّها بقوة الصلة بينه وبين الله فيها ، اكثر مما يشعر في غيرها ، مع ان نسبة الله الى الجميع واحدة ، وسن في الدعاء رفع الاكف الى السماء كأن الله في السماء ، مع ان نسبته من السماء ، نسبته من الارض ، نسبته من اي جهة اخرى . بل لقد جاء ذلك في صريح القرآن الكريم : أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الارض .. ام أمنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصباً .. مع انه تبارك وتعالى منزه عن الجهة والمكان : وهو الذي في السماء إله ، وفي الارض إله ، ولقد اجابت الجارية سيدنا محمداً ﷺ حين سألها عن الله اين هو ، قالت : « في السماء » فلم ينكر ذلك عليها ، بل قال ﷺ « مؤمنة ورب الكعبة » كل ذلك وغيره مراعاة لما يقتضيه الحس في تكييف علاقته مع الله ، من التشبيه ، مع بقاء التنزيه المطلق في كل حالة من الحالات .

٢ – الحركة :

ومع ان الله سبحانه وتعالى منزه عن الاتصاف بالحركة او السكون ، فقد تنزّل الى الحس في صورة المتحرك : « الرحمن على العرش استوى » اين كان قبل العرس ، وقبل الاستواء ؟ وجاء ربك والملك صفاً صفا ، وفي الحديث الشريف : « ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا ، فيقول : هل من مستغفر فاغفر له ... » الى آخر الحديث .. « ومن تقرب اليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن اتاني ماشياً اتيته هرولة .. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

٣ – التجسيم :

وذلك لاثباته لنفسه تعالى : « الوجه ، واليد ، واليدين ، والقبضة ،

واليمين ، والعين ، والأعين ، مع انه ليس كمثله شيء . قال تعالى : فأينما تولوا فثم وجه الله ؛ يد الله فوق ايديهم ، ما منعك ان تسجد لما خلقت بيديّ ، والارض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، ولتصنع على عيني ، فانك بأعيننا ..

٤ – الانفعالات النفسية :

ومع ان الله سبحانه وتعالى منزه عن المؤثرات التي تؤثر في نفوس البشر ، فتُحدِثُ الرضا والغضب ، والسخرية ، وما الى ذلك من الانفعالات ، فقد تنزل تعالى الى الحس البشري ، ووصف نفسه بها .. يقول الله تعالى : يحبهم ويحبونه ؛ سخر الله منهم ؛ غَضِبَ الله عليهم – فلما آسفونا انتقمنا منهم – ويمكرون ويمكر الله .

ومن اسمائه تعالى : الصبور . وفي الحديث الشريف : لا أحد أصبر من إلله على أذى – كما وصفته احاديث شتى بالعجب . والضحك . والفرح . والتبشش . وغير ذلك ..

بل ذهب الله تعالى في التنزل الى الحس الى أبعد شوط يقبله العقل في حقه تعالى ، فقد تصور – تنزلاً وتقرباً – بصورة من يُقرِض ، ويُقرَض ، ويشتري ، ويبيع ، ويصحب ، ويُصحب ، ويُستخلف ... يقول تبارك وتعالى : من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له . ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . وفي الحديث الشريف : اللهم انت الصاحب في السفر ، والخليفة في الاهل ..

وبالجملة فالمتتبع للآيات الكريمة ، والاحاديث الشريفة ، لا يسعه إلا

الاعتراف الكامل بما بذله الاسلام من الحلول الناجعة لمشكلتي التنزيه والتشبيه ، وبما يقدمه للحسّ من « الخيوط » اللازمة التي ينسج العبد منها صلته بربه ، وبما يهيئه للفطرة الانسانية من « الجو » الضروري لبَثّ روح المعاملة بين الخالق والمخلوق ، لا يبالغ في ذلك – مبالغة المسيحية مثلاً – فيكون ذلك على حساب التنزيه الواجب لواجب الوجود ، ولا يغفل ذلك ، او يُقصّر فيه ، فيكون ذلك على حساب الصلة – التي لا بد منها – بين العبد والرب ، – مع اضطراد التنزيه وكماله في كل الاحوال .

ولهذا ، او لأمر من هذا ، جاءت « الإقامة » بالفاظ الاذان ، التي وردت بصيغة التفضيل ، ولازمت – او كادت تلازم – « الله اكبر » كل حركة من حركات الصلاة ، التي هي عماد الدين ، وجماع الصلة بين العبد وربه ، فان العبد مأمور ان يعبد الله كأنه يراه ، وهذه الرؤية اتم ما تكون في الصلاة ، وهذا يقتضي التشبيه من غير شك ، ولذلك لم يكن بُدّ من مقابلة هذا التشبيه بما يكافئه من التنزيه ، فالله « اكبر » من كل صورة يتخيلها العبد حين وقوفه للصلاة ، وادائه لها ، والله اكبر ، ومنزه عن كل صورة ترتسم في نفس العبد حال الركوع والسجود ، ولهذا ورد فيهما « سبحان ربي العظيم ، وسبحان ربي الأعلى » . بالنسبة لياء المتكلم لا نون الجماعة .

ومن هنا نرى ان السلف – رضوان الله عليهم – كانوا أحكم من الخلف فيما يختص بالتنزيه والتشبيه ، فان « إمرار الصفات كما جاءت » والايمان « بالاستواء » مثلاً مع الجهل بكيفيته ، أدعى إلى ايجاد « الجو » النفسي الذي لا تقوم الصلة بين العبد وربه الا فيه ، كما ان « التأويل » الذي ينادي به المعتزله يقضي على ذلك قضاء مُبرماً ،

اما التشبيه او التجسيم بمعناهما الحقيقي فمما يستحيل في حقه تعالى ، ورد بذلك النقل ، وايده في ذلك العقل .

* * *

هذا ، وتتصف الذات العلية بصفات لا تقبل الانتفاء ، ولو لم يرد بها نص من الشارع الحكيم ، وقد تطلق هذه الصفات نفسها على العبد ، مع ان المماثلة منعدمة بين صفات الخالق والمخلوق .

فالحياة مثلاً من الصفات الواجبة – اي التي لا تقبل الانتفاء – في حق مولانا جل وعلا ؛ لأن هذا الكون بما فيه ، لا يمكن ان يوجده ، ويدبرُه ، ويقوّمه إلا من يتصف بالحياة ، فمن لا يتصف بالحياة ، لا يتصف بالعمل .

ولكن الحياة وحدها لا تكفي ، فلا بد من القدرة ؛ وإلا فكيف استطاع ان يبرز هذا الكون من العدم الى الوجود .

وإبراز هذا الكون من العدم الى الوجود برهان على إرادته جل وعلا ، فلو لم يرد ذلك ، لما كان ، على ان مظاهر ارادته تعالى في لا تحصى : اراد ان تكون الاجرام متحركة ، لا ثابتة ، اراد ان يكون محور الأرض مائلا بمقدار ٢٣ درجة او نحوها ، اراد ان يكون الانسان على هيئة وصورة تختلف عن هيئة الحيوان وصورته ، وعن صورة الملك ، وعن صورة الشيطان . وفي الجملة كل هذه التنويعات التي نشاهدها في الكون ما هي إلا مظاهر لارادته ، وبراهين عليها ..

وهنا يجيء العلم ، فقد مرّ بك ان كل تنظيم من تنظيمات هذا الكون (وهي من مظاهر ارادته) دقيق غاية الدقة ، كامل غاية الكمال وهذا لا يتأتى إلا بالعلم .

وهنالك صفات وردت بها الاخبار السماوية ، والكتب المنزلة ، وهي السمع ، والبصر ، والكلام . والعقل يؤيد وجوبها في حقه جلت ذاته ، فانه تعالى لو لم يتصف بهذه الصفات ، لاتصف بأضدادها ، وهي : الصمم والعمى والبكم ، وهي نقائص في حق المخلوق ، فكيف بها في حق الخالق : ان من يهب الكمالات ، لا يُعقل ان يتصف بنقص ..

* * *

ونحن لا نريد ـ هنا ـ ان نستقصي جميع الصفات الواجبة في حقه تعالى ، وانما نقصد الى ان مجرد اشتراك الخالق والمخلوق في هذه الصفات ـ من حيث اللفظ ، لا من حيث الدلالة ـ من شأنه أن يُمَهِّدَ للجو النفسي اللازم لقيام الصلة بين الرب والعبد .

وإلا فأين حياتك من حياته تعالى ؟ انه واهب الحياة لكل حي في هذا الوجود ، وانت لا تستطيع ان تستبقي حياتك الموهوبة لك عندما يحين الحين .

وأين قدرتك من قدرته ، على انها مستمدة منه ، واين ارادتك من ارادته ، على انها قائمة به ، وقل مثل ذلك ، في العلم ، في الوجود ، في السمع والبصر والكلام ، وغيرها من الصفات . هل فكرت يوماً في المحيط ـ الكوني ـ الذي تسري فيه قدرته تعالى ، وتظهر ارادته ، ويعمل فيه علمه ، وسمعه ، وبصره ، وكلامه . فضلا عن « المحيطات » الأخرى التي لا يعلمها الا هو ..

الكلمة للسير جيمز جين :

« ان عدد الاجرام السماوية التي تسبح في الفضاء يعادل عدد ذرات الرمال التي في جميع شواطىء البحار التي في المعمورة » وقليل من هذه

الاجرام ، ما حجمه اكبر بقليل من حجم الارض ، اما الاغلبية العظمى من هذه الاجرام ، فان النجم الواحد منها يساوي في حجمه مئـــات الالوف من حجم الارض . على انك تجد هنا وهناك في هذا الفضاء من الاجرام ما يربو حجم الجرم الواحد منها على ملايين الاضعاف من حجم المعمورة »[1] .

أي شيء كوّن هذا الكون ، واي قدرة ابرزته . واي ارادة كيّفته . واي « عقل » نظمه .

وتصور ـ بعد ذلك ـ ان استطعت . ضخامة هـــذا الفضاء الذي توجد فيه هذه الاجرام . ولنقرّب لك ذلك ببعض الامثلة[2] :

قطار سرعته ٦٠ ميلا في الساعة يقطع المسافة :

(ا) بين الشمس وعطارد في ٧٠ عاماً .

(ب) بين الشمس ونبتون Neptune في ٥٠٠٠ عام . على الاقل !

على ان الضوء . وسرعته ٣٠٠ ٠٠٠ ك م في الثانية يصل الينا :

(ا) من الشمس في ٤٩٥ ثانيـــة . اي $\frac{١}{٤}$ ٨ دقيقة .

(ب) من نبتون في ٤ ساعات .

(جـ) ومن اقرب النجوم الى الشمس في ٤ سنوات !

(د) ومن النجمة القطبية في ٤٠ عاماً ..

---

(١) انظر The Mysterious Uuiverse للسير جيمز جين صفحة ٥

(٢) استقينا هذه الامثلة من كتاب « العلم في فنجان »

أي عقل ـ بالغاً ما بلغ ـ يستطيع ان يتصور ضخامة هذا الفضاء . وسعة هذا الكون .

ومع ذلك فان هذه الاجرام . على كبر احجامها . وضخامة عددها . تذرع هذا الفضاء في سرعة تصل الى حد الجنون :

« They are moving rapidly with speeds of the order 10 to 100 miles a second » (1)

ومع ذلك فهي لا تصطـدم ، ولا ترتطم ، ولا يختــل لها نظام ، ولا يصيبها عجز ، ولا كلال ..

اين قدرتك من هذه القدرة ، واين ارادتك من هذه الارادة ، واين علمك من هــذا العلم !؟ بل ما تساوي انت ، او الارض كلها بمن فيهـا وما فيها اذا قيست بهذا الوجود ، دعك من الموجِد العلي ، العظيم . وهل يُعقل ان تشترك معه في صفة من الصفات ، او حالة من الحالات .

* * *

ان إلهاً هذا شأنه ، لا بُد أن يُرهَبَ جانبه ، وتُخشى سطوته ، ويُتقى بأسه ، هذا ما تتطلبه الحقائق ، ويقتضيه العقل ، وتقوم على صحته الدلائل الكثيرة المنتزعة من الواقع المحسوس الملموس ، يقول الله تبـارك وتعالى : هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ، او من تحت ارجلكم ، او يلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض ، — قل من يملك من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح بن مريم وأمــه ،

---

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية : المجلد ٢١ – الصفحة ٣١٨ ؛ طبعة سنة ١٩٥٣ .

ومن في الارض جميعاً ؟ أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الارض فاذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصباً ، فستعلمون كيف نذير .

وهل في الواقع ما يكذب ذلك ، وهل عند العقل ما ينفيه ، ألا تقوم الشواهد التي لا حصر لها على صحته ؟

إذن فأولى الدعامات التي تقوم – او التي ينبغي ان تقوم – الصلة عليها بين العبد وربه هي دعامة « الخوف » . ان اية محاولة لإنكار ذلك ، او تجاهله ، انما هي عَوَرٌ في البصيرة ، ومنافاة للحق ، ومناقضة للواقع الملموس ، ودعوى تكذبها جميع الشواهد والبراهين .

ولو لم نعلم عن الله الا هذه القدرة التي لا يدركها عقل ، ولا يكيفها خيال ولا وهم ، لما قامت الصلة بين العبد وربه الا على اساس الخوف وحده ، دون غيره ، او هذا ما كان ينبغي ان يكون .. وإلا فماذا كان ينتظر عاقل من قادر مثل الله تعالى اذا أمر فلم يُطَع ، ونهى فلم يُسمَع ، وأهاب فلم يُؤبه له ؟

ولكن الله سبحانه وتعالى – لكماله المطلق – لم يشأ ان تقتصر الصلة بينه وبين عباده على « الخوف » وحده ، فافتتح كتاب العزيز بآية الرحمة (البسملة) ، وجعلها فاتحة كل سورة من سوره ، ما عدا سورة واحدة من مائة واربع عشرة ، وافتتح الثناء عليه (في سورة الفاتحة) بالرحمن الرحيم ، وقال ان رحمته سبقت غضبه ، وتَسَمَّى بسبعة وسبعين اسماً من اسماء « الجمال » في حين أن اسماءه كلها تسعة وتسعون ، وما ذكر آية عذاب في كتابه العزيز الا وأردفها بآية رحمة ، واذا انفردت آية عذاب في سورة ، قابلتها آية رحمة منفردة . في سورة أخرى (نبّىء عبادي أنني أنا الغفور الرحيم . وان عذابي هو العذاب

الأليم – وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً . الى قوله تعـالى وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنـــة زمرا – غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديـــد العقاب – وفي الآخرة عذاب شديـد ، ومغفرة من الله ورضوان .. الخ)

وبذلك أقام تعالى بجانب دعامة الخوف من سطوته . دعامة أخرى هي دعامــة الرجاء في رحمته . بل ان الله تعالى جعـــل يبعث هذا « الرجاء » في النفوس ، ويقويه بكل السبـل التي في متناول ادراك العقل . قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمـة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم – وهو الذي يقبل التوبة عن عباده . ويعفو عن السيئات – بل انه تعالى ، بنص الكتاب العزيز ، يحب التوابين ، اي الخطائين . لأن التوبة لا تكون الا من خطأ او ذنب .

وآيات الرجاء كثيرة يخرج بنا استقصاؤها عن المقصود ، واكثر منها الأحاديث ، ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، الحديث . التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، الحديث – وخرج مسلم في الصحيح عن عبـــد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي ، عن مروان بن محمد الدمشقي ، عن سعيد ابن عبد العزيز ، عن ربيعة بن يزيـد عن ابي ادريس الخولاني عن ابي ذر الغفاري عن النبي ﷺ فيما يروى عن رب العزة انه قال :

يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينـكم محرماً ، فلا تظالموا . يا عبادي كلـكم ضال الا من هديته ، فاستهدوني اهـــدكم ، يا عبادي كلـكم جائع الا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم ، يا عبـادي كلـكم عار الا من كسوته ، فاستكسوني اكسكم ، يا عبادي انتم تخطئون

بالليل والنهـــار ، وانا اغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني اغفر لـكم ، يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو ان اولـكم وآخركم ، وانسكم وجنـكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو ان أولـكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا على افجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو ان اولـكم وآخركم وانسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل انسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط اذا دخل في البحر .

وقال ﷺ : لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ ، وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اشتد عليه الحر والعطش او ما شاء الله ، قال ارجع الى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله اشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هـــذا براحلته وزاده .

* * *

وقيمة التوبة — عقلاً وشرعاً — تتوقف على الناحية العملية المترتبة عليها . وأدنى درجات هذه الناحية العملية ، عزم التائب على تغيـير — او تصحيح — المسلك الخاطىء الذي كان يسلكه قبـــل التوبة . وهذا لا يكون الا بدافع الرغبة ، او الرهبة ، او الدافعين معـــاً . اما الرغبة فأثرها — بحكم الطبيعة البشرية — في هذه الحالة ضعيـف . فان الانسان من شأنه ايثار العاجل على الآجل ، خاصة والعاجل شهادة ، والآجل غيب . وهذا من البديهيات الاولية المسلم بها . فلم يبق إذن

ـ في الغالب الأعم من الناس ـ الا عامل الرهبة ، واذا صح ذلك ـ وهو لا شك صحيح ـ لم يكن بـد من تلازم الخوف والرجاء . الخوف ، ليبعث على سلوك المسلك المطلوب ، والرجاء ليحول دون اليأس او القنوط الذي من هنا ينتهي اليه الخوف اذا تزايد ضغطه ، وترادف أثره . فالاعتماد على الرجاء وحده غرور . والاعتماد على الخوف وحده تهلكه . وكلاهما عَوَرٌ في البصيرة . فان العاقل من نظر بالعينين معاً . نظر بعين الى جنب الله وما يتطلبه ذلك من الخوف منه . والرهبة له . خاصة وقد امر ، ونهى ، وتوعد وأوعد . ولم يفعل سبحانه ذلك عبثاً بطبيعة الحال . ونظر بالعين الاخرى الى فضل الله ورحمته ، وسعتهما ، وشمولهما . وخاصة هذا ما اخبر به عن نفسه وما يليق بقدره الذي هو فوق متناول الالسنة والعقول .. ولكن هذا لا يلغي ذاك . فاذا كان الفضل مأمولاً ، والعفو مرجواً ، فأن الوعيد باق ، والعذاب غير مأمون ..

وعلى ذلك فالانسان واحد من صنفين :

إما كافر بالاديان ـ السماوية ـ جملة وتفصيلا . فليس هذا مجال الرد عليه .

وإما مؤمن بدين من الأديان السماوية . أي دين ، فلا بد له من التزام جانب الخشية من الله . بالغة ما بلغت صلته بالله تعالى . حتى ولو وصل الى اعلى مقامات الحب .. فإن احق الناس من يخوّفه مالك الملك ، وملك الملوك . فلا يخاف ، ويبلوه بالحسنات والسيئات فلا يأبه . ويأتيه بالآيات والنذر . فلا يزداد الا تيهاً وادلالاً . ويدعي مع ذلك انه يحب الله :

لو كان حبك صادقاً لاطعته ... ان المحب لمن يحب مطيع

او يزعم ان الله تعالى يحبه . وليس له بذلك من علم . على ان الله تعالى لو أحبه لهداه الى سواء السبيل .

هذا ما يقول به العقل ، ويؤدي اليه المنطق الراجح السليم . وهذا ما جاء الاسلام مؤيداً للعقل والمنطق فيه . يقول الله تبارك وتعالى في حق الرسل . وحق من يقتدي بهم : الذين يبلغون رسالات الله . ويخشونه ولا يخشون احداً الا الله : فأثبت لهم الخشية مع كمال مقامهم في الحب . وعلو باعهم فيه . عند من يؤمن بهم على اقل تقدير .. ويرد سبحانه وتعالى على الذين قالوا « نحن ابناء الله وأحباؤه » يريدون انه لن يعذبهم في الآخرة فيقول : قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم : أي في الدنيا بالخوف ، والجوع ، ونقص من الاموال ، والانفس والثمرات ، وبالامراض ، والكوارث ، شأنكم في ذلك شأن سائر البشر ، وما جرى عليكم هنا في الدنيا ، فليس هنالك ما يمنع جريانه عليكم في الآخرة . ولذلك جاء في مساق الآية نفسها : بل انتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء .. والواقع يؤيد القرآن الكريم ، ويكذبهم في دعواهم ، في نفس الوقت ..

والأمثلة من القرآن كثيرة يخرج بنا استقصاؤها عن المقصود .

* * *

على ان هنالك جمعاً من المستشرقين يعتقدون ان الاسلام لا يعرف « الحب الالهي » ، وان ما جاء من هذا الحب باسم الاسلام فانما هو دخيل عليه ، مستورد من ديانة أخرى ، كالمسيحية ، او هو المسيحية بالذات . ويمالئهم في ذلك طائفة من ارباب النظر ممن ينتمون الى الاسلام .

وقد صدق هؤلاء جميعاً ..

وقد كذبوا ، ايضاً ، في آن واحد !!

صدقوا اذا قصدوا بالحب الالهي التجرد من الخشيـة ، والتحلل من قيود الشرع ، وعدم الاكتراث لوعيد الله ، وعدم المبالاة بما يليق بجنابه من الطاعة ، والخضوع ، والاستسلام . فان الاسلام بريء من مثل هذا الحب المفتعل الطائش العابث ، الذي لا يقبل العقل ان يكون في جنب ملك صغير . من ملوك هذه الدنيا الصغيرة الفانية بما فيها ، ومن فيها . فما قولك بمـالك الملك في الدنيا والآخرة ، والسماء والارض ، والغيب والشهـادة :

ألا وقد كذبوا ان ارادوا بالحب الالهي ذلك الحب الذي تلازمـه الخشية ، ولا تفارقه ، ما كان العقل مسيطراً على المشاعر والاحاسيس ، والقرآن وحده يكذبهم ، والاحاديث تلعنهم . يقول الله تبارك وتعالى : ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ـ سوف يأتي الله بقوم يحبهم ، ويحبونه . قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببـكم الله .. الى غير ذلك من الآيات التي تشير الى هذا الحب صراحة كهذه الآيات . او تضميناً ، كقوله تعالى : افتتخذونه وذريته اوليـاء من دوني ، وهم لكم عدو ـ أي وانا لـكم حبيب . وكقوله تعالى : لا تتخذوا عدوي وعدوكم أوليـــاء ـ أي اتخذوني ولياً . فانا حبيبكم ، وانتم احبابي ..

ولنسلم ـ جدلاً ـ ان جميـع الاحاديث الشريفة التي تشير الى هذا الحب ، مكذوبة ، ودخيلة على الاسلام . وهذا ما لا يقول به عاقل . افتكون جميع هذه الآيات في نفس الوقت . مدسوسة على القرآن ومستوردة من الخارج ..

الا رحم الله اهل العقول !

ان الذي جرّ هؤلاء المستشرقين وابواقهم الى هذه الدعوى الكاذبة ـ اذا حسنت نياتهم ـ ينحصر في أمرين :

الامر الاول : انتفاء « الخشية » مع وجود الحب . وقد أبطلنا هذا الامر ـ ان قصدوا اليه ـ فيما سبق ..

الامر الثاني : شيوع الحب الالهي على السنة الصوفية في وقت متأخر نوعاً ما عن زمن البعثة ؛ ويكفي ان يشيع ذكر الحب الالهي في القرآن . والحديث . فان الصوفية لم يجيئوا بالاسلام . وانما جاء به صاحب القرآن . وصاحب الحديث . صلوات الله وسلامه عليه ! فاذا تغنى الصوفية بالحب الالهي بعد ذلك فانما يرجعون الصدى لتلك الآيات . وتلك الاحاديث .. فاذا تأخر رجع هذا الصدى ، فانما لذلك اسبابه الداعية اليه . والعبرة بما جاء في القرآن والحديث ، لا بما تأخر ، او تقدم من اقوال المسلمين ..

ولكن لمن تقول مثل هذا الكلام .

ويرحم الله اهل العقول .

* * *

وبعد ، فهذا استطراد لم يكن لنا منه بد .. ونحن نتكلم عن مخالفته تعالى للحوادث . فأن اول تساؤل تثيره هذه الصفة الالهية في الذهن هو : كيف يمكن ان تقوم مع هذه الصفة صلة بين الله والعبد ؟ وعلى

أي اساس تقوم ؟ اعلى الخوف وحده ؟ اعلى الرجاء وحده ؟ ام عليهما جميعاً ؟ وهل اذا وُجد الحب . انتفت الخشية . وهل يمكن ان تقوم الصلة على الحب وحده دون الخشية والخوف ..

ما هو موقف العقل من كل ذلك ؟ وما هو رأي الاسلام فيه ..

ونظن ان فيما اوردناه الكفاية . والله ولي الهداية والتوفيق ؟..



الباب الثالث

القضاء والقدر

هل الانسان حر الارادة في كل ما يأتي وما يدع ، كامل الاختيار في كل ما يفعل وما يترك ؟ أو هو مسيّر في حركاته وسكناته ، مقود في اعماله وتصرفاته ، ليس له في كسبه اختيار ، ولا في ارادته استقلال .

فريق قال بالاختيار .

وفريق قال بالجبر .

وتوسط جمهور المسلمين ـ اهل السنة والجماعة ـ فجمعوا بين الجبر والاختيار ، والتسيير والحرية .

ولكل فريق أدلته وبراهينه على ما ذهب اليه ..

(أ) الاختيار

الذي يميل اليه العقل ـ المجرّد ـ عادة هو أن المرء لا بد ان

يكون مخيراً في افعاله ، حراً في تصرفاتـه ، والذين يقولون بالاختيار لا يعدمون سنداً من الاسلام نفسه :

١ - مناط التكليف هو الاختيار ، وإلا فكيف يأتمر بما تأمر او ينتهي عما تنهى ، شخص لا حيلة له ، ولا قدرة ، ولا اختيار ؟ وما قيمة الأمر والنهي ، والشخص المأمور او المنهى مسيّر نحو غاية خاصة ليس له عنها من فكاك ، ولا دونها من متحوّل ؟ أليس هذا من العبث الذي لا يليق بالمخلوق ، فضلاً عن الخالق ؟

٢ - العدالة - في حدود الفهم البشري - تقتضي ان يكون المرء كامل الاختيار في كل فعل يترتب عليه ثوابه او عقابه ، وإلا فعلى اي اساس تثيب شخصاً ليس له فيما أتى حول ، وكيف تعاقب احداً على امر ليس له عنه مُنصرف ، ولا في تركه اختيار ؟

٣ - يقول الله تبارك وتعالى : وما ربك بظلاّم للعبيد ، ولا يظلم ربك احداً ، وفي الحديث القدسي أن الله حرم الظلم على نفسه . واذا كانت المثوبة على العمل الذي لا اختيار فيه للمرء فضلاً ومنـّة ، أفليس من الظلم الواضح - في حدود الفهم البشري - أن تعاقب الشخص على عمل تكرهه عليه إكراهاً ، وتقسره عليه قسراً . (لم يعـــد مقنعاً القول بأن تصرف المالك فيما يملك لا يعد ظلماً ، الا إذا لم يرسل هذا القول على إطلاقه . فان المالك من البشر يُسأل قطعاً عن تصرفـه فيما يملك من الأحياء - كالبهائم - فلا يحل له ، ولا يصح منه أن يعذب بهيمة بحجة أنه المالك لها ، المتصرف فيها ، اما ان الله تبارك وتعالى لا يسأل عما يفعل فهذه حقيقة واقعة ، الا أنه كتب على نفسه الرحمة ، ونهى المخلوقين عن تعذيب ما يملكون ، فلا يقبـل العقل ان يأتي هو ما ينهى عنه ، له المثل الاعلى في السماوات والارض) .

٤ – في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً لا يمكن ان تفهم إلا على أساس أن العبد مخيّر – على الاقل – في الافعال التي يعاقب ويثاب عليها : « أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفّى ألا تزر وازرة وزر اخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى – من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها – إن أحسنتم ، أحسنتم لانفسكم ، وإن أسأتم فلها – ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين – ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك احداً – ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو اعلم بما يفعلون – لا يكلف الله نفساً إلا وُسعها .. وغير ذلك من الآيات .

٥ – يقول الله تعالى : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ولا يمكن ان تقوم الحجة – في حدود الفهم البشري – إلا اذا كان للمرء ان يأتي ما يأتي ويدع ما يدع عن اختيار كامل ، وارادة حرة لا دخل لاي مؤثر خارجي في ذلك .

٦ – كيف يكون البلاء الذي اشار الله إليه في عدة آيات : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم .. ونبلوكم بالشر والخير فتنة .. احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » والفتنة والبلاء كلاهما بمعنى الاختبار ، فكيف يكون الاختبار اذا لم يكن هناك اختيار . وكيف يستسيغ العقل البشري خلاف ذلك ، وما نزل القرآن الكريم الا مخاطباً للعقل البشري ، ميسراً من عند الله

للفهم والذكر . يقول الله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ؟ »

٧ – في القرآن حث على السير في الارض للتبصرة والعظة والعبرة ، ولقد وردت في القرآن الكريم اخبار الامم السابقة كعاد وثمود ، وقوم فرعون وغيرهم ، وتكررت قصص هذه الامم في كثير من السور ، وقد ذكر الله الغرض من ذلك فقال عز من قائل : « لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب ، ما كان حديثاً يفترى .. » فكيف يكون الاعتبار اذا لم يكن هنالك اختيار .

٨ – بل ان الله سبحانه وتعالى رفع القلم عن النائم حتى يصحو ، ورتب التكليف على اساس القدرة والذكر ، كما هو مقرر في الاصول ، فمعنى ذلك ان النائم عندما ُسلب منه الاختيار ، بسبب النوم ، رفع عنه التكليف ، وكذلك الناسي ، ومن في حكم النائم والناسي كالمجنون والمغمى عليه والمكره ، كل اولاء سقط عنهم الاختيار فرفع عنهم التكليف . إذن فمناص التكليف هو الاختيار ، وما يستلزمه من قدره . وعليه فلا بد ان يكون الانسان مخيراً ، على اقل تقدير في الافعال التي يترتب عليها ثوابه او عقابه ..

٩ – بل في القرآن الكريم آيات صريحة غاية الصراحة في الرد على من ينفي اختيار العبد .. « سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم » انظر الى كلمة (كذّب) هذه ، والى دلالتها . ثم لا يقف الكتاب عندها بل يرد عليهم في سخرية واستجهال في تمام الآية : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » . ويقول الله تعالى : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا ، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء . فكيف

يقسر على اتيان الفحشاء ، من لم يأمر بها . وجاء ايضاً في الرد على هؤلاء : « ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله ، وان كنت لمن الساخرين ، او تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين .. » الى قوله تعالى : بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين .. »

١٠ – وهل هنالك أدل على الاختيار ، وأوضح في التصريح به من مثل قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ؟ النظر الى الفرق بين قوله تعالى « يُغَيِّر » وقوله « يغيروا » باسناد التغيير في حالة الى الله ، وفي الحالة الثانية الى الناس . ومثل قوله تعالى : « ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض .. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين .. » وغير ذلك كثير ..

١١ – على ان الانسان يشعر بأنه – في الجملة – مخير في تصرفاته اليومية . فهو – في الحدود البشرية – يذهب حيث يشاء . ويتحرك متى شاء . ويختار من الوان الاطعمة واللباس ما شاء . ويفعل ما شاء . ويترك ما شاء (كل ذلك – طبعاً – في الحدود البشرية) فليس هناك ما يوجب نفي الاختيار عنه في اغلب ملابساته ، واكثر ظروفه .

(ب) الجبر :

على اننا اذا نظرنا من الجانب الآخر نجد آيات كثيرة – واحاديث – تؤيد مذهب القائلين بالجبر والتسيير .

انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ..

من يهد الله فما له من مُضل . ومن يضلل الله فما له من هاد .

من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون ..

ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ..

الى غير ذلك من الآيات ..

وفي الحديث الشريف : ان الرجل منكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبين الجنة الا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل اهل النار ؛ ويعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبين النار الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة[1] .

الى غير ذلك من الاحاديث ..

ولقد جاءت نظريات علمية واجتماعية ناطقة بالجبر ، مؤيدة له .

فقانون الوراثة جبر محض ، وربما ظن من لا معرفة لهم بهذا القانون ان الوراثة هنا انما هي مقصورة على الأعراض الجسمانية ، وليس لها صلة بالأخلاق ، والميول ، التي تنشأ عنها التصرفات .. فالى هؤلاء ننقل هذا النص :

« Experience has shown that Mendelian inheritance applies to all sorts of characters, structural, physiological, pathological, and psychological, to characters peculiar to the egg, to the young, and even to old age ; to fundamental laxonomic characters as well as to « superficial » characters, and to characters intimately concerned in maintaining the life of the individual as well as to characters which apparently do not influence survival. » (2)

---

(١) رواه البخاري والمسلم – انظر كتاب : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) ص ٢٧ من كتاب The Mechanism of Mendelian Heredity لمؤلفيه ت. هـ. مورغان .

ولزيادة الاطمئنان أحيلك الى مصدر آخر . واقتبس لك منه شيئاً فيه نوع من التفصيل للاجمال الذي مر بـك في الفقرة .. يقول R. C. Punnett في كتابه Mendalism :

« That ability can be transmitted, there is no doubt . » (1)

« There is no doubt that mental ability is transmitted. »(2)

« The qualities of men and women physical and mental depend primarily upon the inherent properties of the gametes which went to their making. » (3)

« . . . . upon the gametes depend those inherited faculties which enable the zygote to profit by his opportunities, and unless the zygote has reccived them from the gamete , the advantages of education are of little worth. » (4)

وانظر في الفقرة التالية ، وهي من نفس المصدر ، ولنفس المؤلف . هل هنالك فرق – جوهري – بينها وبين حديث الملك الموكل بالنطفة ، والذي يسأل الله تعالى : أهي مخلقة ام غير مخلقـة ، ذكر ام انثى ، شقي ، ام سعيد الى غير ذلك ؟

نص الحديث الشريف هو :

إن الله عز وجل وكل بالرحم ملكا يقول : يا رب نطفة ، يا رب علقه يا رب مضغة ، فاذا اراد ان يقضي خلقه قال اذكر ام انثى ، شقي ام سعيد ، فما الرزق والاجل فيكتب في بطن امه » .

---

(١) ص ١٦٩ ..
(٢) ص ١٧١ ..
(٣) ص ١٧١ من المصدر السابق .
(٤) ص ١٧٣ .

رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري ، انظر كتـــاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٢٧١ . جـ ٣ .

وفي حديث آخر .. ثم يبعث الله ملكا فيؤمر باربـع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه واجله وشقي او سعيد الحديث ..

من حديث طويل رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري .

انظر ايضاً : اللؤلؤ والمرجان : ج ٣ ص ٢٧٠ .

« At the moment of the union of the two gametes is divided the character of another zygote as well as the nature of the population of gametes which must make its home within him. The union once effected the inevitable sequence takes its course, and whether it be good, or whether it be evil, we, the zygotes, have no longer power to alter it. We are in the hands of the gamete. »(1)

هذا ما كان من « الجبرية » في العلوم الطبيعية على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر .

وهناك مثالاً آخر للجبرية في العلوم الاجتماعية . ولنأخذ ـ على سبيل التحديد ـ الجريمة . هل الانسان ـ من الناحية الاجتماعية ـ مخـير فيما يأتي وما يدع من الجرائم .. ان اثر البيئة والوسط في تكوين المجـرم أمر قد فرغ الناس منه حتى ان بعضهم ليلقي التبعة كلها على البيئة ، لا على المجرم . والذين توسطوا في الامر ـ وهو المذهب السائد اليوم ـ لم يبرئوا ساحة الوسط والبيئـة من التبعة ، تقول دائرة المعـــارف البريطانية :

---

(١) ص ١٧٤ من كتاب Mendalism لمؤلفه R. C. Punnett

« Indeed the note of this day is research - research into the factors, whether individual or social which determine criminal activities. » (1)

ولكي تدرك الى اي حد يؤمن « العلماء » بالجبر والتسيير احب أن تقرأ معي هذه الفقرة :

« The Italian - or as it late called the Cnt. - School claims that the criminal is doomed by his inherited traits to criminal career, and therefore a wholly irresponsible factor . Society must of course protect itself against him, but to punish him as if he were a free moral agent is as irretional as it is unethical. »(2)

نحن لا يهمنا ما صح من هذه النظريات وما لم يصح . ولكن الذي يعنينا بالفعل انه ما من حقل طبيعي او اجتماعي إلا واخــذ بمذهب « الجبر » وان اختلف العلماء في « المناطق » التي يعمل فيها « الجبر » والحدود التي يلتزمها ـ عادة ـ في كل منطقة .. فليس في القول بالجبر خرافة ، كما يظن البعض ، وان كان في تعميمه خطأ ـ فيما يظهر بعد الاستقراء والتمحيص .

(ج) الجمع بين الجبر والاختيار :

وهو مذهب اهل السنة والجماعة من المسلمين .

وربما تبادر الى ذهنك ان في الجمع بين الجبر والاختيــار تناقضا ، لانهما متناقضان ، فكيف يجتمعان . ولكن الواقع خلاف ذلك .

لنأخذ مثالاً من محيطك المدرسي :

---

(١) دائرة المعارف البريطانية . ص ٤٨٧ طبعة ١٩٥٣ .

(٢) « « « . ص ٤٨٦ - ٤٨٧ طبعة ١٩٥٣ .

لنفرض ان في مدرستك خمس « جمعيات » وان كل جمعية تزاول نشاطها في المساء .

لو تركت كل جمعية من هذه الجمعيات تزاول نشاطها كما تريد ، ماذا سيحدث ؟ ربما اصطدمت المواعيد ، فالتقت اكثر من جمعية في عدة أمسيات . والامسية لا تحتمل الا اجتماعاً واحداً لجمعية واحدة ..

هذا شيء .. ثم انه ربما تكون الاجتماعات لكل جمعية اكثر مما تحتمل « الفترة » ، ويتناسب ونظم التربية واستعداد الطلبة وحدود « الفراغ » .. كذلك ربما تنحرف جمعية عن الجادة التي توصل الى « الهدف العام » المطلوب ..

كيف يتفادى هذا الاشكال ؟

يطلب من كل جمعية على حدتها أن تعين ـ مختارة حرة ـ مواعيد اجتماعاتها وموضوع كل اجتماع ، ومناحي نشاطها في الجملة . ثم ترفع الجمعيات هذه الاشياء الى ادارة المدرسة التي « تمحو » ـ تحذف ـ من هذه الاجتماعات ما تراه ، « وتثبت » ما تراه ، وتقدم ما تقدم ، وتؤخر ما تؤخر ، حسب ما تقضيه مصلحة المجموعة ، ويتطلبه واجب النظام العام . فليست ادارة المدرسة هي « الفاعلة » لهذه الاجتماعات ، ولا « المختارة » لها . ولا الآمرة بها . كل ما عملتها انها « نظمت » هذه الاجتماعات في حدود المصلحة العامة ، فأخرت ما رأت . من حقه التأخير ، وقدمت ما رأت . من حقه التقديم ، وحذفت ما رأت . من حقه الحذف . واقرت ما رأت من حقه الاقرار . وان اي اجتماع اقرته ادارة المدرسة انما ارتأته الجمعية المختصة طائعة مختارة . تلام على مدى الفشل فيه . و « تثاب » على ما يكتب لها فيه من نجاح . الا انه بعد ان اقرته ادارة المدرسة اصبح واجباً لا مفر للجمعية المختصة من ادائه . ولا مناص من تنفيذه ..

ونستطيع ان نقيس على ذلك أمر هذا الكون . الا انه قياس مع الفارق ، كما يقولون . فان أمر الكون ابعد غوراً ، واشد تعقيداً . واعسر فهماً مما يتصوره العقل ..

لو ترك الله الناس يفعلون ما يشاءون لاختل نظام الكون وسادت الفوضى . كما لو تركت ادارة المدرسة الجمعيات « في المثال السابق تعمل كيف تشاء » ولله المثل الاعلى في السموات والارض .

ولو سلب الله عنهم الاختيار فيما يأتون وفيما يدعون لبطلت حكمة الثواب والعقاب ، وانتفت مهمة التكليف .

ولكن الله أراد فحفظ نظام الكون ، وابقى مهمة التكليف ، فجمع بين التسيير والتخيير ..

ولتقريب ذلك على عزته على العقول نقول :

لما كان علم الله لا يتقيد بحدود الزمان والمكان ، فانه سبحانه وتعالى يعلم ان العبد لو ترك له الامر كما يشاء لفعل كذا وكذا من الافعال ، وأتى كذا وكذا من المنهيات (فيمحو الله ما يشاء) من هذه الافعال ، لحكمة يعلمها هو ، فلا يتأتى للعبد ان يأتيها بحال .. ثم (يُثبتُ) الله ما يشاء من هذه الافعال ، ويأذن للعبد بأتيانها .. فالعبد لا يفعل إلا ما يأذن الله به ، فهو مسير من هذه الناحية ، ولكن أي فعل يفعله ـ أي يأذن الله له في فعله ـ فانما يفعله في كامل الحرية ومطلق الاختيار ، فان الله لم يزد على ان أذِن له به ، فهو مخير من هذه الناحية ، ولذلك فهو محل التكليف ومحور المثوبة والعقاب .

هذا المثال كما ذكرت للتقريب والتفهيم فقط ، فان الله سبحانه وتعالى استأثر بسر القدر ؛ على ان هنالك اشياء ظاهرية تزيد المسألة تعقيداً : الاختيار ، هل هو من خلق الله ام من خلق العبد ، القدرة على الفعل او الترك من الله ام من العبد ، الى غير ذلك من المسائل

المتداخلة التي تزيد الامر تعقيداً ؛ إلا ان المثال – مجرداً عن كل ذلك – يفيد في تقريب « العدالة » الالهية الى الأذهان ، وفي تصوير المدى الذي يكون العبد مخيراً فيه ، والسبب الذي به يكون مناط التكليف ومحور العقاب والثواب ..

وتستطيع ان تذهب بهذا المثال خطوة اوسع واهم ، فتضع الآيات التي تشير الى الجبر ، والتي تشير الى « الكسب » والاختيار ، كلاً في الموضع الخاص بها ، فان الاولى تشير في الواقع ، الى شمول القدرة ، وسعة العلم الالهي ، وكمال التنظيم الذي اقتضت حكمة الله ان يسير الكون – في مجموعه – عليه ، بينما تشير الثانية الى العدل الالهي المطلق في جميع التكاليف وما يترتب عليها من العقاب .!

« لو شاء ربك ما فعلوه » فانهم لم يفعلوه إلا بعد ان اذن الله لهم به ، فهو قادر على ان يصرفهم عن فعله ، ولكنه لم يشأ ان يصرفهم لحكمة ، ففعلوه .. فعلوه عن اختيار منهم ، وإذن منه ؛ ولو لم يشأ لما فعلوه .

« وما تشاءون إلا ان شاء الله » – علم سبحانه وتعالى مشيئات عبيده في سابق الأزل ، فأقر منها في الأزل ما أقر وألغى ما ألغى ، فما ألغاه منها لا يمكن ان يكون لأن كل شيء لا يكون الا بعد مشيئته تعالى . وما أقره ، فلا يكون الا بعد ان يأذن به [1] .

« من يهد الله فهو المهتد » من يأذن الله تعالى له باتيان اسباب الهداية فهو المهتد . ولو لم يأذن له بذلك لما اهتدى . فهو قادر على ان يصرف عنه – او يصرفه عن – اسباب الهداية فيضل .. « ما من

---

(١) وعلى هذا فلا داعي للقيامة التي اقامها الاستاذ الجليل مصطفى صبري في عدة مواطن من كتابه « موقف العلم والعقل والدين » خاصة الجزء الثالث ، استناداً على هذه الآية الكريمة « وما تشاءون الا ان يشاء الله » .

دابة الا هو آخذ بناصيتها » فلا تفعل الا ما يأذن الله لها به من فعل . ولكن ما يأذن لها به انما تفعله عن اختيار ..

« جفت الأقلام وطويت الصحف – الحديث – لأن هذا الامر قد فرغ منه وتمت كلمة الله عز وجل فيه . فانه رتب افعال العباد – في سابق علمه – و « محا » منها ما شاء » واثبت ما شاء » حسب ما اقتضته حكمته العلية » مما لا يتنافى والعدالة المطلقة : وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين .

وهكذا يمكن ان تفعل في جميع الآيات » ومن جميع الاحاديث » التي تشير الى الجبر » او تشير الى الاختيار .

اما قوله تعالى : لا يسأل عما يفعل : فالواقع انها كثيراً ما تُدخَل قسراً في غير ما وضعت له » فان الله تبارك وتعالى – فيما يختص بالثواب والعقاب – تفضل وانزل نفسه منزلة المسئول ..

يقول عز وجل : رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .. ويقول قل فلله الحجة البالغة ولا يمكن ان تتصور الحجة من غير « سؤال » واعتراض . ويقول : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا .. ويقول .. ونحشره يوم القيامة اعمى » قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا .. فلا يستنكف الكبير المتعالي ان يستمع الى هذا الاعتراض » بل ويتفضل بالرد على قائله .. ويقول : ويوم يناديهم اين شركائي الذين كنتم تزعمون » ونزعنا من كل امة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم : فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون .

ويقول : اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون .. ويقول وترى كل امــة جاثية » كل امة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون .. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .

الى غير ذلك من الآيات الكريمة ..

وما معنى الموازين القسط التي توضع ليوم القيامة ، وما معنى استنساخ الاعمال وما معنى الاستشهاد بالجوارح ، ولماذا يلجأ الله تعالى الى كل هذه الوسائل وغيرها لإقامة الحجة على عبيده ، وهو من غير شك القوي الغني عن كل ذلك ، اليس ذلك لأنه تبارك وتعالى تنزل وتفضل فوضع نفسه موضع « المسئول » فيما يختص بالثواب والعقاب وهل هناك برهان - على أنه تعالى وضع نفسه وانزلها منزلة المسؤول اقوى من قوله تعالى — « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » — « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

فليس في قوله تعالى « لا يسأل عما يفعل » دليل على الجبر ، ونفي الاختيار ، وان كانت تقحم في هذا الميدان اقحاماً ..[1]

هذا وقد قالوا ان المالك اذا تصرف في ملكه ، فأسكن بعض عبيده القصر ، واسكن الآخرين مرابط الدواب ، فان هذا لا يعتبر ظلماً ، نقول ان هذا القول اصبح لا يخدم الغرض المرجو منه في هذا الزمن لأن هذا المالك اما أن يكون فعل هذا الفعل لحكمة ، او فعله عبثاً ؛ صحيح ان افعال الله تعالى لا تتبع الحكمة ، ولكن الحكمة تتبع افعاله تعالى من غير شك ، لأن افعاله منزهة عن العبث . ولا يستطيع العقل ان يدرك الحكمة في حرمان من يستحقون سكن القصور من

---

(١) أما انها حقيقة عامة فهذا لا يشك فيه مؤمن عاقل ، فان الله تعالى : لا يسأل : لم خلق هذا ذكراً ، وخلق تلك انثى ، ولا لماذا اطال عمر هذا وقصر من عمر ذلك ، ولا لماذا انشأ هذا في بيئة غير مسلمة ، وذلك في بيئة مسلمة ، ولا لماذا قدم خلق هذا او أخر خلق هذا ، لأن هذه وامثالها من الامور التي يتخذها لحفظ نظام هذا الكون بالطريقة التي يراها هو .. ولا يمكن ان يجادله في الطريقة التي يراها هو الا من كان نظيره في العلم والحكمة والتدبير ، وهذا مستحيل ، ولذلك استحال ان يسأل عما يفعل ، الا ما تفضل به لاقامة الحجة على العباد وهو محور الثواب والعقاب ليس الا ..

حقهم ، واعطاء هذا الحق لمن لا يستحقون ، فيرجع الامر حينذاك الى التسليم لا الى المنطق في التكليف ولو كان مدار الامر على التسليم وحده في التكليف لما تفضل الله تعالى فوضع نفسه موضع المسؤول .. وسيُسأل اصحاب النار يوم القيامة فيقال لهم « ما سلككم في سقر » والجواب الذي يقولونه بنص القرآن ليس هو أن المالك متصرف في ملكه » . ولكن يقولون لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين » .. وسمى الله تعالى يوم القيامة يوم الحسرة . والحسرة لا تكون الا على شيء كان في الامكان ادراكه لولا التفريط في ذلك ، – وفي القرآن الكريم « لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير » وقد عقب الله على ذلك بقوله فاعترفوا بذنبهم ، والامثلة من القرآن في هذا الصدد لا تكاد تحصى كثرة .

اما قوله تعالى : يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء : وامثال ذلك فقد عين الله تعالى الصنف الذي يشاء – او شاء في سابق علمه – أن يغفر له او يعذبه . يقول تبارك وتعالى : واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .. واما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى .. ولو شاء غير ذلك لكان ، الا أنه تبارك وتعالى تنزلَ وتفضل فأنزل نفسه منزلة المسؤول . وكتب على نفسه الرحمة ، وحرم الظلم عليه – كما في الحديث الشريف – مثل ما حرمه على الناس .. ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما ..

هذا تحليل موجز لخلاصة المذاهب الثلاثة التي ينقسم الناس اليها فيما يختص بالقضاء والقدر ، وهل الانسان مسير او مخير ..

ويؤخذ عن القائلين بالاختيار المحض ، ان « العلم » والتجربة والمشاهدة كل اولئك تدخل « الجبر » في حسابها ، كما ان هنالك آيات شريفة واحاديث صحيحة ، كلها تشير الى الجبر وتنطق به .

ويؤخذ على القائلين بالجبر المحض ! اسقاط التكليف ، وابطال حكمة الثواب والعقـــاب ، رضوا بذلك او لم يرضوا ، صرحوا بذلك او لم يصرحوا به ، كما أن هنالك آيات شريفـة ، واحاديث صحيحـــة ، لا يمكن ان تفهم الا على انها تشير الى الكسب والاختيار واخذ كل نفس بمـــا كسبت ، وان كان مثقال حبـــة من خردل ، يؤيدها في ذلك الواقع المحسوس .

فليس اذن الا الجمع بين الجبر والاختيار ، وهو مذهب اهل السنة والجماعة ، نسأل الله ان يجعلنا منهم ، ويحشرنا معهم ، وينفعنا بهم .. وبالرغم من صحة هذا المذهب في نفسه فان الطريقة التي قرره بها ائمتـه رضوان الله عليهم جرّت عليه بعض المآخذ ..

من ذلك الغموض الذي يتسم بـه تقرير هذا المذهب ، والصعوبـة التي تواجه الدارس له ؛ يقول الاستاذ محمد عبده في ذلك « فان شئت ان تقول انه مذهب مع ذلك غامض يكد الذهن في فهمه ، فلك أن تقول وان تنعم النظر .. الخ[1] ويقول « وسواء كان هذا القول غامضاً او غير غامض ، وسواء توجه عليـه من النقد ما يصعب الجواب عنـه اذا روعيت بقية الاصول ، او لم يتوجه ، كل ذلك لا يدفع عنهم انهم قالوا بنفي الاختيار بالمعنى المعروف عند الناس ، وان ثبت الاختيـــار بالمعنى الذي يليـق بكمال الله .. »[2] ولا شك ان هناك متاهات تضل فيها العقول بين تحديد الاختيار المنسوب الى العبد ، وبين الاختيار المنسوب الى الله ، او بين التوفيق بين الاختيارين فان مآل هذا يؤدي الى أن انصار هذا المذهب قدريون – اي معتزله ـ في الظاهر ، جبريون في الحقيقة ، ولا عبرة بالاختيار في الظاهر اذا ثبت الجبر في الحقيقة .

---

(١) انظر كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للاستاذ محمد عبده طبعـــة دار المنار سنة ١٩٦٣ صفحة ١٨٢ .

(٢) نفس المصدر السابق صفحة ١٨٧ .

ولعل ذلك راجع الى نزعة المتكلمين الى تقرير المذهب ، وكان الاولى والاجدر ان يكتفوا بالتقريب دون التقرير ، فان من المحال ان يخضع القضاء والقدر للمنطق للاسباب الآتية :

اولاً : لا توجد آية او حديث شريف يشيران الى الجبر مثلاً ، إلا ونجد هناك آية اخرى او حديثاً آخر يشيران الى الاختيار ، فاذا أضفت الى ذلك الاصول التي يتمسك بها كل فريق رأيت أن من المستحيل التوفيق بين المذهبين المتعارضين ، وأن الحلول الوسط في مثل هذا الموضوع على غير الاساس الذي بينّاه – لا بد أن تكون نكسة الى هذا الطرف ، او ذاك ..

ثانياً : موضوع القضاء والقدر – على الاساس الذي عرضناه – ذو شعبتين :

أولاهما : ما يختص بالله تعالى ، وهي الطريقة التي اراد الله تعالى أن يسير نظام العالم في مجموعه عليها ، وهذا شيء لم يطلع الله احداً عليه .

ثانيتهما : ما يختص بالعبد ، وهي الاعمال التي يعملها العبد ، وقد رأيت أن الله تعالى يمحو منها ما يشاء ، لحفظ نظام الكون وتوجيهه الوجهة التي ارادها الله واختارها منذ الازل .. ولم يقل الله في ذلك الا أنه : من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره : الا أنه لم يطلع احداً على ما محا او اثبت من عمله ، ولا على الحد الفاصل بين اختيار العبد ، وبين اختيار الله ، وبين قدرة المخلوق على الطاعه او المعصية ، وبين قدرة الخالق .

ففي كلتا الشعبتين اطراف و « مواد » خفية تجعل من تقرير المذهب على اساس منطقي بحت ضرباً من ضروب المحال .. ولهذا كان من الحكمة ان يأمر الشارع الحكيم بالامساك عن الخوض في القضاء والقدر ، واعتبر السلف الصالح الكلام فيه بدعة ..

ولهذا كنت احب أن يقتصر الأئمة ـ رضوان الله عليهم ـ على تقريبه دون تقريره ، وعلى التمثيل له ، دون التحقيق فيه .

ماذا يهم العبد من امر القضاء والقدر ؟

أن يجازى المحسن باحسانه ، ويؤخذ المسيء باساءته .

وهذا ما تكفل الله به ؛ واوجبه ـ تفضلا ـ على نفسه ، وارسل الرسل بسببه ، واقام الموازين القسط لتحقيقه .

فماذا يريد العبد بعد ذلك ؟

الواقع انه ـ لظلمه وجهله ـ يريد اكثر من ذلك ..

ولكن « العقل » لا يقبل ان يحكم القاضي في قضية لا يعلم من جزئياتها ومجرى حوادثها الا النزر اليسير !

وهل من العلم في شيء ان يتحدث العالم ـ في المعمل ـ عن انواع المركبات Compounds واصناف الاخلاط Mixtures التي لا يعلم من عناصرها الا القليل ؟

ولعل في هذا القدر كفاية لمن اراد أن يؤسس ايمانه بالقضاء والقدر على دعائم من المنطق والعقل .

وليس على هذا ـ لمن اراد السلامة ـ من مزيد .

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب ..



وجود الله عز وجل

تمهيد :

ورد في بعض الاسرائيليات ان سيدنا موسى عليه السلام سأل الله تعالى ان يكف السنة السوء عنه . فقال له عز وجل يا موسى هذا شيء لم أستبحه لنفسي ، افترض ان اختصك به .

وهكذا لم يخلُ قرن من القرون ، ولا امة من الامم ، من افراد عديدين يتقولون على الله غير الحق : ينكرون وجوده ، او يعطلون صفة او اكثر من صفاته ، او ينسبون له الولد ، او الشريك ، او الصاحبة ، الى غير ذلك مما تعالى الله عنه علواً كبيراً ..

ولعل كل أمر ُتقوّل ، او يُتَقَوّل ، على الله يهون الخطب فيه على جسامته ، اذا قيس بأنكار وجوده تعالى جملة واحدة . فان نسبة الصاحبة اليه تعالى ، او الولد ، او الشريك ، كل هذه وامثالها مسائل ثانوية ، او فرعية ، بالنسبة للاعتراف بوجوده تعالى ، او الانكار له .

ولقد سلك الملاحدة ، وعلماء الاديان من فلاسفة ومتكلمين وغيرهم ، مسالك مختلفة في الدفاع والهجوم في أمر وجود الله تعالى . وكلما اتسعت آفاق المعرفة ، وتقدم ركب العلوم ، ظهرت المشكلة ، أو أُظهِرت ، في شكل آخر ، استُحدِثت فيه وسائل اخرى للدفاع والهجوم ، او سارت

المعركة في اتجاه جديد من الخصومة واللجاج . ولذلك تعددت مناحي القول ، في الاخذ والرد ، وتلونت اساليب الدفاع والهجوم ، وتشعبت متاهات البحث ومفازاته ، حتى اصبح من قبيل المستحيـــل ان يخرج الشخص العادي Layman من كل هذه الجعجعة بطحن غير المتعـــة الفكرية ، واللذة التي تستحوذ على مشاعره حتى تنسيه لب الموضوع .

ولعل الامر ما كان يبلغ هذه الدرجة ، ويتعقد بمثل هذه الصورة ، لو ان الأمر عولج بالطريقة التي تطلبها طبيعته ، وتقتضيها حقيقته .

ان وجود الله عز وجل من الحقائق الاولية التي تقول بها « البداهة » « واذا قالت البداهة نعم هناك اله ، فهذا القول له قيمة في النظر الانساني لا يقل عن قيمة المنطق والقياس لانها قيمة العقل الحي الذي لا يرجع المنطق والقياس الى مصدر غير مصدره او سند غير سنده [1] » .

ولذلك فان اي برهان يتصوره العقل او ياتي به لاثبات وجود الله لا يزيد من اليقين ـ بل لا يصل الى درجة اليقين ـ الذي يَتأتّى من قبل البداهة . يقول بركلي « ان التحقق من ادراك وجود الله لاكبر جداً من تحقق وجود الانسان [2] » .

لذلك نرى ان الفلسفة نفسها حين عالجت مسألة البرهان على وجود الله في بادىء الامر (لم تكن معنية باقامة البراهين على وجود الله للاقناع بعقيدة او التوصل الى الايمان .. فليس وجود الله عند ارسطو وامثاله مسألة دينية او مسألة غيبية يختلف الامر فيها بين الاثبـــات والنفي كاختلاف الهدي والضلال ولكنها حقيقة عقليـــة كالحقائق الهندسية التي يتم بها تصور الحركات والاشكال في الافلاك والسموات [3]) .

---

(١) الله للعقاد صفحة ٢١٢ . (٢) المصدر السابق صفحة ١٩٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢١٣ .

ولا شك ان الفلاسفة ـ الالهيين ـ الذين حاولوا اثبات وجود الله بالبراهين العقلية ـ لم يكن بين ايديهم ما يشعرهم بخطورة المسلك الذي سلكوه ، والمحاولة التي اقتحموها ؛ فالبراهين الأساسية التي تقدموا بها ـ في جملتها ـ كانت كافية للاثبات ، اذ لم يكن للمنكر سند يستند عليه في الانكار ، ولا حجة يدافع بها عن وجهة نظره ؛ حتى الشر ـ وهو اعتى صخرة يحتمي بها الالحاد ـ لم يكن في تلك العصور وبمقتضى مفاهيم تلك الأزمان مما يؤدي الى الالحاد ، بل كان من دواعي تعدد الآلهة لا من اسباب انكار وجودها ..

ودارت عجلة التاريخ ، وخطا العلم خطواته المعروفة ، وامتدت من آفاق المعرفة خيوط ظن « الالحاد » انه يستطيع ان ينسج منها البراهين التي يتكىء عليها ، ويحتج بها ، فاصبحت له كلمة ، وعاد وله سلاح .

ولولا النزعة التي ورثتها الفلسفة عن سالف العصور ، لكان الصحيح ان يتجنب الالهيون البرهان على وجود الله ، ويكرسوا جهودهم في تقطيع الاوصال التي يتشبث بها الالحاد ، فيكفي في البرهان على وجود الله ان تقول به البداهة التي تندرج فيها الاقيسة والبراهين بل والتي تقاس بها الاقيسة والبراهين ، وعلى من تحدى هذه البداهة ، واجترأ عليها ، واصطدم بها ، عليه وحده الاتيان بالبرهان والدليل .

ولكن المسلك ـ التقليدي ـ الذي سار عليه الفلاسفة الالهيون كان مفارقة من المفارقات العجيبة ، ادت بدورها الى مفارقات اعجب .

فبالرغم من ان كفة « الايمان » هي الراجحة ، والغلبة ما زالت له في هذه المعركة الطاحنة ، بالرغم من ذلك نجد ان براهين الاثبات خسرت اكثر مما ربحت ، فلم تعد لها تلك القوة ، بل لم تعد كافية للاثبات[1] ولو بالقدر الذي كان لها في الماضي ، بل لم تعد الكلمة لها في الاثبات ، كما

---

(١) الله للعقاد ص ٩ .

هو المنتظر ، وانما اصبح الاثبات ناتجاً من المقارنة بينها وبين أدلة المنكرين ، واصبح « قصاراها من الاقناع انها ارجح وزناً من ردود المنكرين[1] » هذا بالرغم من ان النصر في المعركة بين الايمان والالحاد ما زال حليف الايمان ..

ومفارقة اخرى اشد امعاناً في العجب هي ان « الايمان » في معركته مع الالحاد ـ كسب من براهين الملاحدة والمنكرين ، اكثر مما كسب من براهين الالهيين والمؤمنين ، اذ ما من سلاح شهره الالحاد في وجه الايمان الا وكان نصيب الايمان من الدفاع به اكبر من نصيب الالحاد في الاعتماد عليه ! فنظرية التطور — وهي اخطر سلاح شهره الالحاد باسم العلم عادت سلاحاً للايمان تستأصل به شأفة الالحاد ؛ والمصادفة — او حساب الاحتمالات ـ الذي فسر به « الالحاد » كل ما في الكون من نظام على اساس من العلم ، واستغنى به عن الله ، ارتدت سهامه في نحور « المنكرين » انفسهم دون ان تصيب مقتلاً من الايمان ، وقل مثل ذلك في علم الاديان المقارنة ، وقل مثل ذلك في غير ذلك .

واعجب من ذلك ان ادلة النفي نفسها اصبح من الممكن الاعتماد عليها في الاثبات ، بل اصبحت يُستغنى بها عن ادلة الاثبات ، فنظرية التطور التي يعتمد الالحاد في تلقائيتها على نفي الخلق وانكار الخالق اصبحت هي نفسها برهاناً يستغنى به عن براهين الخلق والايجاد ، وحساب الاحتمالات الذي يعتد به الملاحدة في نفي القصد والحكمة ، اصبح يُستَغنَى به عن براهين الغاية والتسخير !

وبذلك نرى أن أدلة « النفي » اقوى في الاثبات من ادلة الاثبات نفسها ، فان الحقيقة الإلهية اكبر من ان يحدها منطق ، واشمل من ان يضبطها قياس ، واوسع من ان يحصرها برهان ، وحسبها من الظهور والوضوح ان تقول بها البداهة التي تندرج فيها الاقيسة والمنطق

(١) الله للعقاد ص ٢٢٢ .

والعقل والبراهين ! كما ان حسبها من السند أن أية محاولة لانكارها لا تبوء بالفشل فحسب بل تصبح هي نفسها من اقوى دعامات الاثبات ، واعظم حصون الايمان .

والذي اريد ان اخلص اليه من كل ذلك ان منطق البداهة لا يحتاج الى برهان غيرها .

وليس يصح في الاذهان شيء   اذا احتاج النهار الى دليل

وانما يطالب بالدليل من يتحدى البداهة ويصطدم بمنطقها .

ولذلك كان ينبغي ان تكون معركة الايمان مع الالحاد في حدود تأييد او تفنيد براهين الملاحدة ليس إلا .

ولما كان هذا الكتاب في الاصل لطلبة الجامعة والثانويات الذين تعودوا ان يقرأوا ويدرسوا ، فيما يدرسون ، البراهين على وجود الله [1] ، فقد رأيت ان اتقدم لهم بشيء في هذا الخصوص ، لا لاثبات وجود الله عز وجل ، فان هذا يتأتى من الرد على ادلة الملاحدة ، كما يستند على البداهة التي لا يصطدم بها الا مخبول او مأفون ، ولكن لتصحيح بعض الاخطاء الجوهرية التي تصحب عادة محاولات المناهج المدرسية - وغيرها - حين تتعرض للبراهين على وجود الله .

ثم اخلص من ذلك الى موقف القرآن الكريم من ادلة الوجود للتفرقة بينه وبين الفلسفة في هذا الميدان .

---

(١) من الطريف ان الطالب - اول ما يدخل الثانوي - يدرس البرهان على وجود الله كانه في حاجة اليه ! او كأن البرهان على وجود الله في مثل هذه السهولة . ومن الطريف ان البراهين التي تدرس له تنحصر في برهان الخلق، وبرهان العناية او الغاية، والحركة ولا ادري ماذا يكون موقف الاستاذ اذا سأله الطالب « الا يعرف الملاحدة الذين ارسوا سفنهم على ظهر القمر برهان الخلق ، وبرهان العناية ؟ ألم يسمعوا بهما عرضاً ولو حينما كانوا طلبة بالثانويات ؟! - ولعل اطرف من هذا كله ان يزج ببعض اقوال الفلاسفة بقصد التحضر والدلالة على سعة الافق ! مثل « انا افكر فانا موجود ! » كان الطالب في السنة الاولى بالثانوية يفهم هذا ، او كأن الطالب يشك في انه موجود ، فهو محتاج في اثبات وجوده الى برهان !

البرهان على وجود الله

ليس امام العقل الا واحد من امرين :

الامر الاول : ان هذا الكون وُجد من غير موجد ، ومعنى ذلك انه أزلي ، أبدي ، لا افتتاح لوجوده ..

الامر الثاني : ان لهذا الكون خالقاً — ازلياً ، ابدياً ، لا افتتاح لوجوده — هو الذي اوجد هذا العالم بما فيه ..

افتراضان اثنان لا ثالث لهما[1] ..

ولا بد من قبول واحد منهما .

فأي هذين الافتراضين احق بالقبول .

يتجه على الافتراضين معاً اعتراض اساسي واحد ، هو ان العقل لا يمكنه ان يتصور شيئاً ازلياً لا افتتاح لوجوده ، كائناً ما كان ذلك الشيء .. ولكن هذا الاعتراض لا قيمة له هنا . حيث ان من ينكر ازلية الله تعالى يُسلم بازلية المادة ، سواء استطاعت العقول ان تتصور ذلك ام

(١) هناك افتراض ثالث رفضه العلم كما سنرى وهو ان الله ازلي ، وان المادة ازلية ايضاً .

لم تستطع ، فلا سبيل له الى الاعتراض ـ من هذه الناحية ـ على من يؤمن بحدوث المادة ، وازلية الله عز وجل ..

على ان العجز عن تصور الشيء او تصور ازليته . ليس في حد ذاته برهاناً على ان الشيء غير موجود . وإلا لأنكر الماديون انفسهم وجود المادة لعجز العقل البشري عن تصور ازليتها !

ويتجه على الافتراض القائل بازلية الخالق وخلقه للكون انه يثير مشاكل يتعذر على العقل البشري حلها او تفسيرها .

من ذلك لماذا خلق الله هذا الكون ـ غير الازلي ـ في الوقت الذي خلقه فيه ؟ لماذا لم يخلقه قبل ذلك . او بعد ذلك ؟ ما الذي طرأ وجدّ حتى خلقه بعد ان لم يخلقه في الازمان السحيقة التي سبقت خلقه ما دامت مشيئة الله منزهة عن الطروء والتأثر بأي عامل من العوامل التي تستدعي الطروء والتغيُّر .

والاجابة على مثل هذه المشاكل (اولاً) ان مثل هذه المسائل يمكن ان تثيرها ازلية المادة نفسها كما سنرى عند كلامنا عن عمر الشمس . فلماذا لم يكن اكبر مما قدره العلماء ملايين او بلايين المرات ما دامت المادة ازلية عند من يقول بازلية المادة ؟ على اننا فيما يختص بالخالق نستطيع ان نقول ان الله تعالى قدر في سابق علمه القديم ان يخلق هذا الكون في وقت معين فلما جاء الوقت المعين اخرجته الارادة الالهية في الصورة التي ارادها الله له وفي الوقت الذي سبق به العلم .

واذا لم تكن هذه الاجابة في جملتها كافية فماذا في ازلية المادة مما يفسّر توقيت اي شيء كان بعد ان لم يكن ؟ كل ما قيل في ذلك انما هو تخرصات لا تقدم ولا تؤخر في الموضوع . حتى ان الاستاذ العقاد ـ وهو من هو ـ يسميها اوهاماً ليست بشيء منها « بعيان شهود » ولا بمنطق

صحيح ولا بعلم من علوم التجربة والاستقراء »[1]

ويستطرد العقاد رحمه الله فيقول « ان قبول فكرة الله ايسر من قبول هذه الاوهام ومن التعسُّف في اقامة هذه الحدود . وآخر من يجوز لهم التطوح في تلك الاوهام والفروض هم اولئك الماديون الذين يبطلون كل شيء غير الحس والتجربة والاستقراء . فانهم اذا دخلوا في عالم الغيب والايمان سقط مذهبهم كله من تحتهم وهم لا يشعرون »[2] .

(**ثانياً**) ان اساس الأشكال هنا هو اننا نقيس الخالق بالمخلوق ونقارن بين عمليات التفكير في عقلنا الضعيف المحدود الضئيل ، وبين ما نتخيله عن العقل الأول الأزلي الذي تعالى عن الحدود والقيود وتنزه عن النظائر والأشباه .

ويتجه على الافتراض الاول وحده[3] اعتراضان :

اولا : تقوم الشواهد الكثيرة على حدوث المادة ، او على حدوث تطورها على الأقل .. ان شمسنا هذه وهي من الشموس الطاعنة في السن ، لا يمكن أن يزيد عمرها عن خمسة آلاف مليون سنة ، حسب تقدير العلامة « ميلن » وربما كان ـ حسب ما يقول العلماء ـ اقل من ذلك بكثير .

فلماذا لم يكن عشرة آلاف ، او مائة الف مليون ، مثلاً ؟

واحدة من اثنتين :

إما ان المادة التي تطورت حتى صارت الى هذه الشموس محدثة ، غير ازلية ، فمن أحدثها ؟

او أن تطور المادة بدأ يحدث قبل مدة معينة من الزمان طالت ، ام قصرت ، فالانطلاقة الأولى لعملية التطور حادثة غير ازلية ، فمن أحدثها ، او سبب حدوثها .

---

(١) و (٢) صفحة ٢١٨ من كتاب الله للعقاد الطبعة الثالثة .

(٣) اي الافتراض القائل بازلية المادة .

الاحتجاج بالحركة الدفعية التي تقع من اجزاء المادة بطبعها ، كالدفع والجذب ، احتجاج في غير موضعه ، فان هذه الحركة مرتبطة بالمادة . فاذا كانت المادة ازلية ، فهي ازلية معها .

فلماذا تأخر تأثير هذه الحركة - الازلية ، جدلاً ؟ ان شمساً من اقدم الشموس لم يمض على ميلادها اكثر من خمسة آلاف مليون سنة .

اما الاحتجاج بما يسمونه « المصادفة » هنا في هذه الحالة وامثالها - فهو سذاجة ينكرها العلم ، وتحايل لا يقره اكثر العلماء ، وافتراض بحت ، لا يقوم على صحته دليل [1] .

واذا صحت النظريات الحديثة التي ادت اليها البحوث الذرية وغيرها ، والتي تقول بان المادة طاقة متكثفة ، اذا صحت هذه النظريات ، فان ذلك لا يفيد الملاحدة من هذه الناحية في قليل ولا كثير .

فاذا كانت المادة في الاصل طاقة ، أصبحت المادة حادثة وأصبحت الطاقة - في زعم الملاحدة - أزلية . ولنسلم جدلاً بذلك .

لكن ما الذي كثّف هذه الطاقة ، حتى صارت « مادة » ؟ أهو عامل في طبيعة الطاقة نفسها ، كحركة الدفع التي يقولون انها من طبيعة المادة ، ام هو مصدر خارج عن الطاقة . ان قالوا انه شيء في طبيعة الطاقة ، أبطلناه بنفس البرهان الذي أوردناه في ازلية المادة ، وان قالوا هو شيء خارج عنها ، فقد اتفقنا . على ان العلم نفسه بدأ يقرر ان هذا الكون لا يمكن ان يكون ازلياً .

يقول الدكتور « ادوارد لوتركبل » استناداً على القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية « فالعلوم تثبت بكل وضوح ان هذا الكون لا يمكن ان يكون ازلياً » ثم يقول « وهكذا توصلت العلوم - دون قصد - الى ان لهذا الكون بداية ، وهي بذلك تثبت وجود الله ، لان ماله بداية

---

(١) انظر الفصل الخاص بالمصادفة من هذا الكتاب ص ٣٤ .

لا يمكن ان يكون بدا نفسه ، ولا بد له من مبدىء او من خالق هو الاله[1] » .

ويقول الدكتور ايرفنج ويليام « فعلم الفلك مثلاً يشير الى ان لهذا الكون بداية قديمة وان الكون يسير الى نهاية محتومة ، وليس مما يتفق مع العلم ان نعتقد بان هذا الكون ازلي ليس له بداية ، او ليس له نهاية فهو قائم على اساس التغير . وفي هذا يلتقي الدين بالعلم[2] » .

هذا هو الاعتراض الاول الذي يتجه الى افتراض ان هذا الكون ازلي ، وجد من غير موجد .

اما الاعتراض الثاني . فهو ان في هذا الكون اشياء لا تكاد تحصر . ولا يمكن ان تكون تأتت من غير تدبير ، وحكمة ، وادراك[3] . فمن اين جاء هذا الادراك . وهذا التدبير . وهذه الحكمة . أمن الكون نفسه . ام من مصدر خارج عنه ؟

صحيح ان العقل لم يستطع ـ بعد ـ ان يدرك سر كل ما يجري في الكون ، ولا الحكمة من كل شيء فيه . ولكن هذا لا يمكن ان يلغى إلغاء ما تدل عليه مظاهر الكون الاخرى من التدبير والحكمة والادراك .

كل ما يمكن ان يترتب عليه هو واحد من امرين :

إما ان كل ما في الكون من دلائل التدبير والحكمة انما جاءت عن طريق المصادفة والتطور (وقد رأيت فساد ذلك في الفصول السابقة) .

او ان كل شيء في الكون مرتب على اساس التدبير والحكمة[4] .

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم صفحة ٢٩ .

(٢) المصدر السابق صفحة ٥٥ .

(٣) و (٤) مظاهر التدبير والحكمة لا تثبت ببرهان الغاية او العناية او التسخير ، لان قوانين المصادفة فيما يدعي المتمسكون بها تدل على انه يمكن ان يكون هناك حكمة من غير حكيم ، وانما إثبات الحكمة انما يأتي بنقض ما تدعيه قوانين المصادفة في هذا الخصوص ، فالاعتماد هنا على دراسة قوانين المصادفة لا على برهان الغاية او التسخير .

وكل ما هنالك ان العقل ـ بوصفه الراهن ـ لا يستطيع ادراك الحكمة من كل شيء . ولا الوصول الى كل حقيقة . وهذا ظاهر لا يحتاج الى برهان .

* * *

فأنت ترى من كل هذا الحوار ، ان عناصر البرهان على وجود الله – ان شئت أن تعطيه هذا الاسم – تُستمد من الرد على ما يثيره الملحد ، ولا تقوم على اثبات وجود الله ابتداء . إن وجود الله هو الاصل في هذا الحوار ، هذا ما تقتضيه طبيعة المشكلة نفسها ، فاذا خالف احد هذا الاصل ، فلا بد من النظر في الاسباب التي يعتمد عليها في مخالفته لهذا الاصل ، ثم تفنيد هذه الاسباب ؛ وقد رأيت أن هذه الاسباب تنحصر في الأمور التالية :

(أ) افتراض أن الله ازلي يثير مشاكل كثيرة ، نقول له واكثر من ذلك المشاكل التي يثيرها افتراض ان المادة ازلية ، وجدت من غير موجد .

(ب) ترجيح جانب ازلية المادة على اساس التفسير المادي لمظاهر الحياة والحكمة والتدبير بناء على قوانين المصادفة وحساب الاحتمالات ، وقد رأيت أن هذا يفيد « الايمان » اكثر مما يفيد « الالحاد » .

(حـ) ترجيح جانب ازلية المادة على اساس « التلقائية » التي تقول بها نظرية التطور فيما يتوهمون ، وقد رأيت أن نظرية التطور عادت فأكدت « الهدف » و « الغاية » فكانت طعنة في صدر الالحاد اولاً وقبل كل شيء .

(د) نتائج الدراسات المقارنة للأديان ، وقد رأيت امرها فيما سبق من فصول هذا الكتاب . فماذا عند الملحد بعد ذلك .

ان كان عنده شيء فليأت هو به ابتداء ، هذا ما تتطلبه طبيعة

المعركة بين الايمان والالحاد ، وان لم يكن عنده شيء رجع الى الاصل ، الى الايمان بوجود الله عز وجل ، وهو الذي تقول به البداهـــة التي تندرج فيها الاقيسة والبراهين .

ومتى وصلنا الى هذه النتيجة ، اقتضت طبيعة المعركة ، وطبيعـــة مشكلة الشر نفسه ، أن نحـاول أن نجد تفسيراً لمشكلة الشر بناء على النتيجة التي توصلنا اليها ؛ فضلاً عن أن الشر في حد ذاتــه لا ينفي وجود الله عز وجل ، وان كل ما يثيره من مشكلة هو : كيف نوفق بين الإله الرحمن الرحيم الواحد ، الذي جاءت به الكتب السماوية ، وبين وجود هذا الشر ، وبين العدل الذي هو من صفات هـذا الإله الذي جاءت به الكتب السماوية ، وبين ما تدل عليه بعض وجوه هذا الشر ، او كلها ، وقد وجدت محاولات كثيرة لهذا التوفيق ، إن لم تكن ناجحة في نفسها ، فهي اقرب الى متناول العقل من المشاكل التي يثيرها انكار وجود الله ، والتي لا نجـــد لها من حل مقبول ، والتي يظل اكثرها مستعصياً على كل حل . وليس من شك أن « الشر » هو المشكلة الجُلـَّى ، او مشكلة المشاكل كما يسميها الاستاذ العقاد ، بل انها الصخرة العاتية التي تتحطـَّم على جوانبها كل جهود الفلاسفة الالهيين . هذا ينبغي أن نسلم به . ولكن الحطام الذي يتناثر على جوانب هذه الصخرة كاف لأن يحمل الانسان الى بر السلامة والنجاة ، والايمان . بخلاف جهود الملاحدة التي تستحيل – بطبيعتها – هشيماً لا يحمل المتشبثين به الى الفضاء ، ولا يحول دونهم والغرق الى اعمـــاق الضلال . ذلك لأن مشكلة الشر لا تنفي بطبيعتها وجود الله عز وجل كما رأيت . ويمكن حصرهـــا – بهذه الطريقة – في مجال التوفيق بين وجود الشر ومقتضيات الرحمة الإلهية والعدالة . وهو امر غير عسير .

القرآن الكريم وأدلة الوجود

درجت المناهج الدينية في المدارس على الكلام عن البراهين القرآنية التي تثبت وجود الله عز وجل . شأنها في ذلك شأن الكتب التي تسير على هذا النهج امثال كتاب « الله » للاستاذ المرحوم العقاد . او كتاب « عقيدة المسلم » وما سبقها من كتب في هذا المضمار .

ولا بد من الحذر الشديد والحيطة التامة حينما يزج الناس بالقرآن في مثل هذا المأزق . وذلك لأن الطالب قرأ او سيقرأ البراهين الفلسفية وحينئذ سيتساءل : ما هو الفرق بين البراهين الفلسفية وبين البراهين القرآنية ؟ أيها احكم صياغة ، وأصح دلالة وأقرب الى الهدف ؟ وماذا فعل القرآن الكريم ازاء البراهين التقليدية ؟ هل استخدمها على ما فيها من « علات » أم صحح من اخطائها ؟ وأتى بها سليمة من العيوب ، مبرأة من المآخذ ؟ وما هو فضل القرآن الكريم في هذه الناحية ؟ كل هذه — وغير هذه اسئلة يثيرها الزج بالقرآن الكريم في مثل هذه الاحوال . واذا لم يجد الطالب الاجابة — المطلوبة ! — عليها رجح جانب الفلسفة على جانب القرآن الكريم فكفر ، او أداه ذلك الى الكفر ، والاستخفاف بالقرآن جملة وتفصيلاً . بل والاستخفاف

بالبراهين الفلسفية التي عجزت عن إثبات وجود الله !

لذلك وكي نتفادى هــــذه الاخطاء رأيت ان اصحح اهم المفاهيم فيما يختص بالقرآن وأدلة الوجود وذلك بمعالجة المسائل التالية :

المسألة الأولى : هل ميدان البرهان على وجود الله هو الدين ؟

قبل البدء في بحث البراهين القرآنية ينبغي أن نحدد ميدان البرهان على وجود الله تعالى : أهو الدين أم هو العلم – العلم بمعناه الواسع العام الذي تدخل فيه الفلسفة .

ان اول ما يتبادر الى اذهان الكثير من الناس ان ميدان البرهان على وجود الله انما هو الدين اولاً وقبل كل شيء . وقد يدعوه الى ذلك فهم الناس واعتقادهم أن الدين وحده هو من الله وأن العلم من الناس . ولا شك – عند المؤمنين – أن الدين نزل من السماء . كما لا شك أن العلم خرج من الارض . وأن الدين وحقائق[1] العلم : كلا هذين : من عند الله بنص القرآن الكريم ، وبمفهوم اقوال كثير من العلماء . يقول الله تبارك وتعالى « علم الانسان ما لم يعلم » ويقول جل شأنه « وما اوتيتم من العلم الا قليلاً » والشاهد هنا في قوله تعالى « اوتيتم » – الى غير ذلك من الآيات ، اما اقوال العلماء فنكتفي منها بقول العلامـــة « جيمز كوننت » في كتابه « مواقف حاسمة في تاريخ العلم » ترجمة الدكتور احمد زكي (ان الذي يحير العقل في تاريخ العلوم ان كثيراً من الافكار الانقلابية فيه ، وصل اليها اصحابها بطرائق ما كان يحدسها العقل ابداً ..)[2] صحيح ان مجهود الناس في تحصيـــل العلم وتقدمه

---

(١) الاختلاف بين الناس لا يكون في حقائق العلم ، وانما فيما يستنبط من هـذه الحقائق ، فالحقائق شيء وما يستنبط منها شيء آخر .

(٢) مواقف حاسمة صفحة ١١٦ .

لا يُنكر ، ولكن هذا لا ينفي ان العلم من الله ، وإلا نفى السعي على الرزق ان الرزق من الله ، واذا ثبت أن الدين والعلم – العلم بمعناه الواسع – كليهما من عند الله تساوى – على الأقل – ان يكون ميدان البرهان على وجود الله هو العلم او الدين .

لكن هل في مقدور العلم – او في طبيعته – البرهان على وجود الله ؟

يقول الاستاذ العقاد « اما العلوم الطبيعية نفسها فليس من شأنها أن تخول اصحابها حق القول الفصل في المباحث الإلهية والمسائل الابدية ، لأنها من جهة مقصورة على ما يقبل المشاهدة والتجربة والتسجيل ، ومن جهة اخرى مقصورة على نوع واحد من الموجودات »[1] .

وهو كلام صحيح لا على اطلاقه ؛ فمما لا شك فيه ان الله جلت ذاته – من حيث ما هو غيب – لا يدخل البرهان عليه في نطاق العلم – التجريبي – بحال من الاحوال ، فالعلم لن يعرف ذات الله ، ولا كنهه ، ولن يعرف كيف يسمع الله او كيف يبصر ، او كيف استوى على العرش ، او كيف كان قبل الخلق ، او كيف يكون الآن ، الخ .. لكن الله كسبب او كعلة ، او مؤثر لا يتأتى عقلاً ان يُتوصل الى اثبات ذلك الا عن طريق العلم ، او على اساس العلم على الاقل . ففي الماضي كان اثبات وجود الله كسبب – او لم يخرج اثبات وجود الله كسبب – عن نطاق العلم . فبرهان الخلق والابداع في اي صورة من صوره لا يخرج عن البرهان على العلة الاولى – او السبب الاول الذي ادى الى هذا الكون ، والى تحريك ما تحرك منه ، والى تسخير ما تسخر منه . وحسبك أن الفلسفة كانت تندرج فيها كل العلوم .. وحينما بدأت العلوم تتميز ، وتستقل وتنفصل عن الفلسفة

---

(١) الله للعقاد صفحة ٢٨٢

وضاقت دائرة الفلسفة تبعاً لذلك لم يكن للفلسفة في هذا الشأن نصيب يعتد به ؛ فان العلم هو الذي يكشف عن وجود الله كسبب او كمؤثر ، وهو الذي يرشد الى هذه النتيجة ، ثم بعد ذلك يتقدم بنتائجه هذه الى الفلسفة التي تتبناها من بعــده . والذين يتابعون معركة النفي والاثبات القائمة اليوم يجدون مصداق ذلك ، فقد دخل العلماء (المعركة) مثبتين او جاحدين واصبح لكلمتهم المقام الاول ، بــل خاض الفلاسفة المعركة جاحدين او مثبتين بسلاح العلم ولا شيء غير العلم ؛ وما زال العالم اليوم يرهف اذنيه في لهفة ، ويتابع سير العلم في شغف ليستمع الى الكلمــة الاخيرة التي يقولها العلم ، العلم وحــده ، والتي ينبنى عليها النفي او او الاثبــات ، الالحاد او الايمان ، ولا يمكن للعلم ان يفعل ذلك الا على اساس مبدأ السببية ، يقول « إندروكونواي ايفي » – من ذوي الشهرة العالمية في العلوم الطبيعية – « ان احداً لا يستطيع أن يثبت خطأ قانون السببية ، فبدونه تنعدم جميع الأشياء الحية ، والعقل البشري لا يستطيع ان يعمل الا على أساس السببية .. وقد سمعت بعض رجال العلوم يقولون أن السببية تنتهي حيث تبدأ الميتافيزيا او مبادىء التفكير ، ولكني لا اوافق على ان يستخدم الانسان هذا القانون في المواطن التي تعجبه ، ثم يرفض استخدامــه عندما يخشى النتائج التي يوصله اليها . واضافة حلقة ميتافيزيائية جديدة الى سلسلة السببية لا تعتبر تعارضاً مع المنطق فنحن نفعل ذلك دائماً في ميدان العلوم وفي مستوى حياتنـــا اليومية »[1] .

اما النظريات الفلسفية التي تحاول اثبات وجود الله تعالى عن طريق المنطق المجرد فهي من ناحية لا بد ان تصاغ في اطار المفاهيم العلمية التي رسم العلم حدودها ، ووضح معالمهــا ، والا كانت نزوة بن وهم ، او

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم صفحة ١٥٤ .

وثبة من خيال ليس الا ، ومن ناحية اخرى نراها اصبحت تقرأ للامتاع لا للاقناع عند الملاحدة على الاقل !

بل ان من اهم المسالك التي سلكها القرآن في البرهان على وجود الله تعالى احالة ذلك الى العلم « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت .. » « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ومالها من فروج ، والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج .. » « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق .. » الى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة والتي تحث على دراسة الكائنات والنظر فيها بقصد تحصيل العلم الذي يستمد منه الدليل على خرافة انكار وجود الله تعالى وكذلك الدليل على وحدانيته وما يليق بذاته من صفات ، الكمال ، وما يؤكد صدق ما جاء به النبي المعصوم على وجه العموم .

لكن هل ينفي ذلك ان القرآن الكريم ـ بالرغم من ذلك ـ جاء بالبراهين على وجود الله ؟

اذا كان ميدان البرهان على وجود الله عز وجل هو العلم ـ العلم بمعناه الواسع ـ فان هذا العلم بدأ بتجارب الانسان الاول الفجة وملاحظاته الضيقة المحدودة . وما زالت آفاق العلم تتسع رويداً رويداً شيئاً فشيئاً عبر القرون الطوال ترتقي السلم درجة فدرجة مع ازدياد في السرعة كلما قطعت شوطاً حتى وصلت الى المرحلة ـ الاخيرة ؟! ـ التي نشاهدها اليوم والتي كما يقول العلماء ليست في حقيقتها الا بداية المطاف ، فمعنى ذلك ان المفاهيم والمقاييس والمقومات العلمية ـ تختلف كما هو معلوم ـ باختلاف الاطوار التي مر بها العلم ؛ وما ينطبق من ذلك على العلم بمعناه الاصطلاحي ينطبق على الفلسفة بمعناها الحديث .. فليست المفاهيم العلمية ـ والفلسفية ـ في زمن ارسطو مثلها في زمن ابن رشد ، والمفاهيم العلمية

والفلسفية الآن تختلف عنها بطبيعة الحال فيما سبق من العصور . بل ان المفاهيم في العصر الواحد والبيئة الواحدة تختلف باختلاف المستويات العلمية بين الافراد . هل يدرك الناس جميعاً ـ اليوم ـ حتى عوام المثقفين منهم كيف يكون الجزء اكبر من الكل ، وكيف ان الواحد يساوي اثنين ، وكيف ان الخطين المتوازيين يلتقيان وكيف ان الرجل حين يجري من الاسد لا يجري لانه خاف ، ولكنه يخاف لانه جرى ، وكيف ان « الحاجة » تنشىء الاعضاء ، او كيف ان « المصادفة » لها حساب يسمى حساب الاحتمالات يحتكم اليه العقلاء لا المجانين ! الى غير ذلك من المفارقات الحديثة التي يقول بها اناس هم ابعد ما يكونون عن الجنون ، واحظى ما يكونون بالتقدير والاكبار والاعتبار من جميع اهل الكلمة والشأن ، حتى ولو اختلفوا معهم في شيء مما ذهبوا اليه .

واذا كانت المفاهيم والمقاييس والمقومات العلمية ـ والفلسفية ـ تختلف باختلاف الأزمنة واختلاف اطوار العلم ، واذا كان البرهان على وجود الله لا يكون الا في حدود هذه المفاهيم والمقاييس والمقومات ، كان طبيعياً ان يختلف هذا البرهان باختلاف الازمان ، فالبرهان على وجود الله في زمن ارسطو لا بد أن يختلف عنه في زمن ابن رشد ، لا بد ان يختلف عنه اليوم ، وذلك تبعاً لاختلاف اطوار العلم وبالتالي اختلاف المقاييس والمفاهيم . اضف الى ذلك ان كتاباً من عند الله – كالقرآن – لم يجيء لمخاطبة اساطين العلم التجريبي وجهابذة الفلاسفة دون سائر الناس ، وانما جاء ليخاطب هؤلاء ومعهم سائر الناس في جميع العصور على تباين مستوياتهم ومفاهيمهم في العصر الواحد !

فماذا يفعل القرآن الكريم والحالة هذه ؟ هل يقدم البرهان على وجود الله بمفاهيم البدائيين الذين يعيشون عراة في الأحراش اليوم وبدأوا يسلمون ؟ هل يقدمه بمقاييس افلاطون وارسطو ، او يقدمه بمفاهيم

« تلميذهم » ابن رشد ؟ أو يقدمه بمفاهيم اينشتاين او هكسلي او هيوم ؟

هذه مسألة هامة يجب ان نضع لها كل اعتبار حين نتكلم عن ادلة الوجود في القرآن الكريم .

المسألة الثانية ، وتنحصر في امرين :

الاول : هل كان القرآن الكريم في حاجة الى اثبات وجـــود الله بالبراهين في الزمن الذي انزل فيه .

الثاني : هل القرآن محتاج الى اثبات وجود الله بالبراهين باعتبـاره – بحق – قول الله الفصل الصالح لكل زمان ومكان .

لقد كان اكثر العرب – حين نزول القرآن – مشركين ، وكان اكثر هؤلاء المشركين يعرفون الله ويؤمنون بوجوده ، ومن اسمائهم عبدالله ، ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله . وكان من بينهم نصارى ، ومن بينهم يهود وهم اهل كتابين سماويين منزلين من عند الله ، وكان من بينهم الصائبة الذين يكاد يجمع الباحثون على انهم يؤمنون بالله ، وان كانوا يعبدون الكواكب لأنهم يقولون بضرورة « المتوسط » – الروحاني – .

فالمؤمنون بوجود الله - في زمن نزول القرآن – كثرة كاثرة ، ومحاولة اثبات وجود الله لهم بالبرهان عبث وفضول يتنزه القرآن الكريم عنه ، والمنكرون لوجود الله في ذلك الزمن – من العرب – قلة ، ولم يكن لهم حجة ، ولا اثارة من علم يستندون عليها في هذا الانكار ، فمجادلتهم عبث ايضاً ، لأن المجادلة ما هي الا المحاجة ، أي مقارعـــة الحجة بالحجة ، ومن لا حجة له فعلى أي أساس تجادله ، وبأي منطق تحاجه .؟ حكى القرآن الكريم عنهم انهم قالوا « ما هي الا حياتنـا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » فلم يرد عليهم ولم يأبـه بهم

بل قال معلقاً على قولهم « وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » .

ولكن القرآن الكريم لم ينزل للعرب وحدهم ، ولا للعصر الذي نزل فيه ، وانما نزل لجميع الأمم ، وفي مختلف العصور ، واذا كان الالحاد في ذلك الزمن اعزل فلا شك انه بعد ذلك قد تسلح — او وهم الناس انه قد تسلح — بسلاح من العلم ، واصبح للملاحدة "شُبَه" — ان لم نقل حجج — يستندون عليها في انكار وجود الله ، ويستميلون عقول الكثير من الناس بسحرها وزخرفها وبهرجها . فماذا اعد القرآن الكريم لهؤلاء من عدة ، وما هي البراهين التي قدمها لهم ، وكيف استطاع ان يصوغها بمفاهيمهم ومستوياتهم متنزلاً في نفس الوقت الى عقول عامة الناس المختلفي المستويات ، المتبايني المفاهيم .. اليس القرآن صالحاً لكل زمان ومكان ، ألم يجيء القرآن مخاطباً للناس في كل المستويات والمفاهيم في جميع العصور .

للاجابة على هذه المسائل يجب ان نعرف :

أولا : ان القرآن الكريم يعتبر وجود الله عز وجل من الحقائق الأولية التي تقول بها البداهة . « أفي الله شك » ؟ وهو يتفق مع الفلسفة في ذلك . ولقد مر بك قول الفيلسوف بركلي « ان التحقق من ادراك وجود الله لأكبر خير من تحقق وجود الانسان » وقد وجد طائفة من الصوفية ، ومن الفلاسفة ايضاً ، يبرهنون على وجود الكون نفسه بوجود الله عز وجل .

ثانيا : ان القرآن الكريم يعتبر الايمان بوجود الله امراً فطرياً جُبلت عليه النفوس « واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى » والواقع يؤيد القرآن الكريم فيما ذهب اليه ؛ فقد آمن الناس بالله قبل ان يعرفوا البرهان على وجوده ،

وما زال كثير من الناس يؤمنون بالله دون الحاجة الى برهـان . يقول الاستاذ العقاد عليه الرحمة « ونحن اذا رجعنا الى تاريخ الايمان في بني الانسان وجدنا ان اعتماده على الوعي الكوني اعظم جـداً من اعتماده على القضايا المنطقية والبراهين العقلية ، وانه اقوى جداً من كل يقين يأتي من جانب التحليل والتقسيم[١] » - ويقول الاستاذ احمد امين « يكاد يكون كل انسان مفطوراً على الاعتقاد بوجود إله خلق العالم ودبره ، ويكاد الناس بفطرتهم يجمعون على ذلك مهما اختلفت اسماء الله عندهم ، واختلفت صفاته ، يستوي في ذلك الممعن في البـداوة ، والمعرق في الحضارة ، وهذا ما يعجب له الباحث الاجتماعي اذ يرى اجماع القبائل - حتى التي لم تتصل بغيرها اي اتصال ، والتي لا تعرف من العـالم الا رقعتها من الارض وغطاءها من السماء - على إله خالق ، ان اختلفوا فيه فخلاف في الأسماء او الاختصاص »[١] .

ثالثاً : لقد كان القرآن ، شأنه في كل امر ، منطقياً مع الحقائق ؛ ولا شك ان الحقيقة الإلهية اكبر من ان يحصرها برهان ، او يحدهـا منطق ، او تحيط بها عبارة ؛ ولذلك لم تكن البراهين الفلسفيـة على وجوده تعالى الا كافية بعض الكفاية في الاثبات ، كما ينقل الاستاذ العقاد عن البروفسور لويس[٣] .

رابعاً : واستناداً الى الواقع ، نميل الى الاعتقاد بان الله تعالى علم انه لن ينهض على انكار وجوده برهان ، مهما كان ؛ ولذلك يقول البروفسور لويس فيما ينقله عنه الاستاذ العقاد « ان ادلة المنكرين غير كافيـة

---

(١) « الله » للعقاد صفحة ٢١٢ .

(٢) ضحى الاسلام لاحمد امين حب ١١ - جـ ٣ طبعة ٥ .

(٣) الله - مقدمة الطبعة الثالثة ص ٩ .

للانكار »[1] ـ بل يذهب العلامة (اندرو كونواي ايفي) من ذوي الشهرة العالمية ، يذهب الى ابعد من ذلك فيقول :

« ان احداً لا يستطيع ان يثبت خطأ الفكرة التي تقول « ان الله موجود » كما ان احداً لا يستطيع ان يثبت صحة الفكرة التي تقول « ان الله غير موجود » ، وقد ينكر منكر وجود الله ، ولكنه لا يستطيع ان يؤيد انكاره بدليل .. انني لم اقرأ ولم اسمع في حياتي دليلاً عقلياً على عدم وجوده تعالى »[2] .

واذا كان وجود الله عز وجل – في نظر القرآن ـ حقيقة لا تقبل الشك ، والايمان به فطرة جبلت عليها النفوس ، والبرهان عليه اكبر من ان يحصره حد من المنطق ، او العبارة ، والانكار لوجوده لا ينهض به دليل ، اذا كان كل ذلك كذلك ، كان من العبث ـ في حدود هذه المفاهيم ـ محاولة البرهان على وجود الله ؛ واقتضى المقام ان يُتجاهل من ينكر وجود الله ، او يطلب منه الدليل على انكاره .

وهذا هو عين ما فعله القرآن الكريم .

ففي حالات خاصة نجد القرآن الكريم تجاهل منكري وجود الله عز وجل ولم يقم لكلامهم اي وزن – قالوا « ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » فلم يزد القرآن في الرد عليهم باكثر من قوله تعالى « وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » – قارن موقف القرآن هذا بموقفه من منكري البعث « وضرب لنا مثلاً ، ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم ـ قل يحييها الذي انشأها اول

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٢) الله يتجلى في عصر العلم صفحة ١٤٧ .

مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون ، أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم ؟ » فانظر كيف اهتم بالرد عليهم ، وكيف استرسل في الحجج ، الواحدة ، تلو الأخرى .

وكما نجد من القرآن الكريم تجاهل منكري الالوهة في حالات ، نجد منه ما يشعر بمطالبتهم بالدليل على صحة ما يذهبون اليه ؛ « أم خلقوا من غير شيء » اي ان كانوا يعتقدون انهم خلقوا من غير شيء ، فليأتوا ببرهانهم ، فان منكر الالوهة تحدى البداهة ، ان لم نقل كذّب الفطرة ، فعلى من يتحدى البداهة البرهان اولاً وقبل كل شيء ، هذا ما يقتضيه العقل السليم ؛ ومن قبيل ما يشعر المطالبة بالبرهان من منكر الألوهة على انكاره قوله تعالى « قل من رب السموات والارض » ان كان الله ، فقد انتهى الأشكال ، وهذا ما تقول به البداهة دعك من الفطرة ! وان وجدت السموات والارض من غير رب ، فليبرهن على ذلك من يعتقد ذلك ؟

وهكذا في كل الآيات التي تدور في هذا الفلك – ليس فيها الا تجاهل او مطالبة بالدليل ؛ ومعنى كل ذلك ان القرآن جادل الملاحدة ، فيمن جادل ، فتجاهلهم حيناً ، وطالبهم بالدليل حيناً آخر !

ولو فعل غير ذلك لما كان منزلاً من عند الله .

ذلك لأن القصد من مجادلة الملاحدة ، ليس هو البرهان على وجود الله الذي هو « خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن ، ويدين به المفكر ، ويتطلبه الطبع السليم[1] » كما « ان الحس والعقل والوعي والبديهة جميعاً تستقيم على سواء الخلق حين نستقيم عليه »[2] . وانما القصد من مجادلتهم هو افحامهم ، واعجازهم .

---

(١) و (٢) آخر فقرة من كتاب (الله) للمرحوم العقاد .

وقد تم للقرآن ما اراد كما رأيت .

وبذلك لم يتورط فيما تورطت فيه الفلسفة ، حين حاولت اقتحام البرهان على وجود الله ، فكان من امرها ما كان !

هذا وقد ازدحمت صفحات الكتاب الحكيم بالآيات التي تسند كل مظاهر التدبير والحكمة والخلق والايجاد والانعام الى الله وحده دون سواه ، فالله وحده هو الذي يحيي ويميت ؟ وهو وحده الذي يمسك السماء ان تقع على الأرض الا بإذنه ، وهو وحده الذي سخر الريح فتثير سحاباً يسوقه الى بلد ميت ، والله وحده هو الذي « اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً » الى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة .

وسياق معظم هذه الآيات الكريمة يدل على انها تخاطب المشركين ، الذين انزل عليهم القرآن ، اول ما انزل ، والذين كانوا — او كان اكثرهم — مؤمنين بالله ، فلا يتأتى عقلا ان يكون فيها برهان على وجود الله تعالى ، لأن البرهان في الحقيقة ان يقدم لمن يحتاج اليه . ومن يؤمن بوجود الله ابتداء فلا حاجة له بالبرهان على وجود الله .

وبالرغم من كل ذلك فقد جرت العادة ان يعد كثير من المفكرين ، والمفسرين من أمثال الفخر الرازي مثلاً ، هذه الآيات الكريمة من ادلة الوجود . مع انها — او اكثرها على الأقل — لم تأت الا في حق المشركين لتدلهم على ان الله الذي يؤمنون به ابتداء ويشركون به ما لا ينفع ولا يضر ، والذي يمسك السماء ان تقع على الأرض ، والذي يطعم ولا يطعم ، والذي يكشف الضر الخ .. هذا الاله هو احق بالعبادة من غيره من الاصنام او الاوثان التي لا تفعل شيئاً من ذلك . — حتى الاستاذ

العقاد، على جلالة قدره وطول باعه. يذكر مثـــل هذه الآيات ضمن براهين الوجود في القرآن الكريم [1].

وسواء كانت هذه الآيات الكريمة خاصـــة بالمشركين، او كانت منسحبة بحكم التبعية او الاصالة - بعضها او كلها - على الملاحدة، فان الذي لا شك فيه أنه لا توجد فيها آية واحدة صيغت صياغة البرهان؛ بل انها صيغت في قوالب دعاوى [2] - صحيحة من غير شك - لكن يستحيل ان تكون الدعاوى، وان صحت، براهين؛ لأنها في الوقت نفسه مفتقرة في اثبات صحتها إلى البراهين.

ولو كانت هذه الآيات الكريمة براهين، لما تكبد الاشاعرة وغيرهم مؤونة صوغ البراهين، فماذا يكون برهان يصوغه اشعري او متكلم، كائناً من كان، في جانب برهان يصوغه الله عز وجـــل؛ يقول ابن رشد « تبين لي أن الطرق - يعني التي سلكها المتكلمون من اشاعرة وغيرهم - ليست واحدة منها هي الطريقـــة الشرعية » [3] - وربما ظن انصاف الجهلاء من المرتزقة بالدين أن ابن رشد يقصد بالطريقة الشرعية هذه ان القرآن الكريم أتى بالبرهان على وجود الله تعالى، بالمعنى المعروف من كلمة برهان؛ والواقع ان ابن رشد يرى أن القرآن الكريم « نبّه على الأدلة المفضية الى وجود الصانع الحكيم [4] » وفرق كبير بين أن القرآن

---

(1) انظر « الله » للعقاد صفحة ٢٣٦ حيث أضاف الآية الشريفة « قل من يرزقكم من السماء والأرض » وهي تخاطب المشركين المؤمنين بالله تعالى بدليل قوله تعالى في نفس الآية « فسيقولون الله ».

(2) بعضها صيغ في قوالب استفهامية: ارأيتم ان جعل الله عليكم الليـــل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء الآية وغيرها كثير.

(3) الكشف من مناهج الأدلة صفحة ٦٥.

(4) المصدر السابق صفحة ٦٧.

الكريم نبه ، وبين أنه اتى بالبراهين ؟ ـ بل الواقع ان ابن رشد يرى أن نلتمس البراهين في من « تقدمنا من الأمم السالفة ممن كان لهم نظر في الموجودات واعتبار لها بحسب شرائط البرهان ، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به »[1] كما « انه يجب علينا ان نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا من ذلك سواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا او غير مشارك في الملة »[2] ـ واذا كان القرآن الكريم اتى بهذه البراهين فما هي حاجتنا الى من تقدمنا من الأمم .

وواضح من كل ذلك ان ابن رشد لا يرى ان القرآن الكريم اتى بالبراهين على وجود الله عز وجل ، وانما يجب ان « نتقدم اولاً فنتعلم انواع البراهين وشروطها »[3] ثم ننظر في البراهين التي اتى بها من سبقنا ، فنقتصر منها على ما يؤيد « الدعاوي » التي جاء بها الكتاب العزيز ، فاذا قال تعالى « خلقكم من نفس واحدة » ، ايدنا هذه الدعوى ببرهان نصوغه نحن ، او نستورده ممن سبقنا ، ونسميه « برهان الخلق » واذا قال تعالى « سخر لكم ما في الارض جميعاً منه » ايدنا هذه الدعوى ببرهان نصوغه نحن ، او نستورده ممن سبقنا ، ونسميه برهان التسخير ، ولذلك « نجد ان الطريقة التي نبه الكتاب العزيز عليها تنحصر في (هذين) الجنسين »[4] ـ فالقرآن الكريم ـ والحالة هذه - لم يزد على أن نبه على الطريقة التي ينبغي ان نسير عليها في البرهان على وجود الله عز وجل .

لقد انجرف ابن رشد في هذا التيار بدافعين لهما اقوى الاثر في

(١) فصل المقال لابن رشد صفحة ١٣
(٢) المصدر السابق صفحة ١٢
(٣) المصدر السابق نفسه صفحة ١٠ .
(٤) الكشف عن مناهج الأدب صفحة ٥٠ .

نفسه وتفكيره ومذهبه ، الدافع الاول حبه الاعمى للفلسفة الاغريقية ، والدافع الثاني هو أن المفاهيم التي احدثتها النهضة العلمية لم تكن قد وجدت بعد طريقها الى الوجود ، فنظرية التطور لم تكن معروفة ، ودولة « المصادفة » لم تكن قامت بعد ، وكان من اليسير ان تنسب كل مظاهر الحكمة والايجاد في هذا الكون الى مدبر حكيم خلاق ، وكان من الجنون ان تنسب اي شيء منها الى المصادفة ، فمفهوم المصادفة في زمن ابن رشد مختلف كل الاختلاف عن مفهومها الحاضر ، الا عند العوام من الناس بطبيعة الحال[1] .

ولذلك ، وتحت تأثير هذين العاملين ، ظن ابن رشد انه وجد ضالته ، حتى جاء الفيلسوف « كانت » – وهو من الفلاسفة الالهيين – فاهوى بفأسه على براهين ابن رشد ، واستاذه ارسطو ، وتوالت عليها الضربات وتوجهت اليها الطعون من كل جانب حتى اصبحت « لا يعتمد عليها » فيما يقوله الفيلسوف المعاصر بيرتراندرسل في كتابه المشهور : History of Western philosf ophy.

وهنا يظهر الفرق بين القرآن والفلسفة : ان الآيات الكريمة التي تناولت مظاهر الايجاد والحكمة ونسبتها الى الله عز وجل ، وان لم نصغ منها براهين على وجوده ، تعالى ، فقد ضمنتها كل احجار الزاوية لأقوى البراهين التي صاغتها الفلسفة قبل نزول القرآن الكريم ، وبعد نزوله حتى اليوم ، وقد خسرت الفلسفة في هذه الناحية ، بقدر ما كسب

---

(١) من المفاهيم الحديثة للمصادفة « ان صندوقاً من الحروف الابجدية يعاد تنضيده مئات المرات والوف المرات وملايين المرات على امتداد الزمن الذي لا تحصره السنون ولا القرون فلا مانع ان هذه التنضيدات تسفر في مرة من المرات عن الياذة هوميروس او قصيدة من الشعر المنظوم والكلام المفهوم – الله للعقاد صفحة ٢١٥ – وانظر كذلك ما اوردناه في الفصل الخاص بالمصادفة في هذا الكتاب، ص ٣٤.

القرآن الكريم ؛ ذلك ان كل البراهين التي صاغتها الفلسفة لم تكسب قوتها الا بالمقارنة الى ما يضادها من براهين الملاحدة ، ليس ذلك فحسب ، بل ان كل البراهين التي صاغتها الفلسفة لم تقو على اقناع الملاحدة حتى الآن ، بينما لم يقو ملحد واحد على تفنيد اي دعوى من الدعاوي التي تضمنتها الآيات الكريمة ، والتي اتخذت منها الفلسفة - قبل نزول القرآن وبعده - حجر الزاوية لأقوى البراهين التي توصلت اليها . وذلك راجع - كما قلنا - الى المسلك الحكيم الذي سلكه القرآن الكريم تجاه الملاحدة : ان من ينكر وجود الله متحد للبداهة ، فان كان تحديه عن علم فليأت به ، وان كان عن وهم فلا بد من تجاهله .

فاذا نسب ملحد ظهور الحياة للمصادفة ، لم يكن من الحكمة ان نبرهن له على وجود الله ، وانما الحكمة ان ننظر في السند الذي استند عليه ، ان نتحداه ان يثبت صحة السند الذي استند عليه ؛ وما زالت الحياة لغزاً لم تستطع المصادفة ولا العلم - ولن تستطيعا - تفسيره[1] - واذا نسب ملحد انقسام الاحياء الى نبات وحيوان ، وانقسام الحي الى ذكر وانثى اذا نسب ذلك الى تطور الخلية التي لا تتصف بالذكورة ، ولا الانوثة ، اذا ادعى الملحد ذلك فمن العبث ان نبرهن له على وجود الله عز وجل وانما الحكمة ان ننظر في السند الذي استند عليه ، وان نتحداه ان يثبت صحة السند الذي استند عليه ؛ ولم تستطع نظرية التطور - ولن تستطيع فيما نعتقد - ان تفسر كيف انقسمت الخلية الى ذكر وانثى تفسيراً يمكن الاعتماد عليه[2] ؛ وحتى لو استطاعت ذلك فلن تستطيع ان تنفي تدخل قوة غير مادية في هذا الانقسام .

---

(١) انظر الفصل الخاص بالمصادفة من هذا الكتاب ص ٣٤ .

(٢) انظر الفصل الخاص بنظرية التطور من هذا الكتاب ص ٤١ .

ومن هنا نرى الحكمة البالغة في ان القرآن الكريم لم يتقدم ببرهان على وجود الله ، لانه اولاً ليس في حاجة الى ذلك وثانياً لأن طبيعة المعركة بين الايمان والألحاد تقتضي أن من العبث محاولة البرهان على وجود الله مع تجاهل السند الذي يستند اليه الملاحدة .

قد تقول وهل تقدم القرآن الكريم بالبرهان على فساد السند الذي يستند اليه الملاحدة في انكارهم لوجود الله عز وجل ؟

والجواب أن القرآن الكريم تحداهم – بطريقته الخاصة – ان يأتوا بالسند وكان من اعجاز القرآن الكريم الا يتطرق الى أي سند يأتون به ، او وهم يتشبثون به لان الله تعالى علم ان كل سهم يحاول الملاحدة ان يوجهوه الى صدور المؤمنين سيرتد اليهم اولاً قبل ان يصيب من المؤمنين مقتلاً ، كما حدث بالفعل حين تقدموا بحساب الاحتمالات والمصادفة ، وحين تقدموا بنظرية التطور وحين تقدموا بدراسة الأديان المقارنة[1] – كما أن الله تبارك وتعالى – وهذا من عجائب القرآن – تكفل بذلك حيث قال « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق » ، ولذلك ما شهر الملاحدة سلاحاً توهموه من العلم ضد الدين ، الا وكان حصناً للدين ، وطعنة نجلاء في قلوبهم . وقد فصلنا ذلك بما فيه الكفاية .

الا أني احب أن أشير الى ظاهرة الليل والنهار وحدها . تلك الظاهرة التي ترددت في القرآن الكريم في آيات عديدة تنسب حدوثها الى الله وحده[2] .

يدرس الطلبة في المدارس ان ظاهرة الليل والنهار انما تحدث من

---

(١) واجمع تفاصيل ذلك فيما سبق من الفصول .

(٢) كقوله تعالى : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن اراد ان يذكر الآية) يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل الى غير ذلك من الآيات .

دوران الارض حول الشمس ؛ فالوجـه الذي يقابل الشمس من الأرض يكون نهاراً ، والذي لا يقابلها يكون ليلاً ؛ وهكذا يتعاقب الليـل والنهـار .

وقد اثبت العلم أنه رغم هذا الدوران ، فقد كان المفروض ان يكون هناك نهار دائم في كل اجزاء الكرة الأرضية بحكم ما يصل اليها من الشموس التي لا تحصى ، والتي تحيـط بالكرة الارضية – كما يقول Colman « كما تحيط الغابة المكتظة بالاغصان والورق بقطعة الارض التي تحتها »[1] – رغم ما بين هذه الشموس من تباعد .

فكان المفروض – والحالة هذه – ان يكون هناك نهار دائم ، وألا يكون هناك ليل – فكيف كان هناك هذا التعاقب بين الليل والنهار ؛ وكيف امكن ان يكون هناك ليل ؟ يفسر ذلك نظرية « الاتساع او التمـدد » Expansion of the universe التي تعضدها كثير من المظاهر الأخرى ، بل والنظريات ،[2] – ولكن ما هو هذا الذي يُحدث او يسبب الاتساع والتمدد ؟ افتراضان احدهما يشير الى أن للكون بداية ، ومعنى ذلك أن له خالقاً ، والافتراض الآخر هو افتراض شيء في طبيعة المادة ، او بتعبير « كولمان » « Some present built - in property » وهو افتراض لا ينفي وجود الخالق إن لم يؤكده[3] .

ومن هنا تتضح لك حكمة القرآن الكريم بل واعجازه ، في انه يبدأ بذكر الليل قبل النهار ؛ لأن ظاهرة الليل ، في هذه الحالة ، أوضح

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابه Modern theories of the Universe منشورات Signet Science Library صفحة ٦٥ و ٦٦ .

(٢) انظر شرح هذه النظرية في المصدر الآنف الذكر صفحة ٤٧ فما بعدها .

(٣) انظر اسباب الاتساع في المصدر السابق صفحة ٥٥ فما بعدها .

في تصوير القدرة الإلهية من ظاهرة النهار ؛ لا يشذ القرآن في تقديم الليل على النهار ، في آية واحدة من آياته الكريمة ، الا حين يبدأ بجزء من الليل او النهار ، كقوله تعالى والضحى ، أو والفجر ، فان ظاهرة الضحى والفجر اظهر في تصوير القدرة الإلهية حتى من ظاهرة الليل نفسه ، وإلا حين يبدأ بذكر الشمس ، كقوله « والشمس وضحاها » الخ . فان المفروض ان تغرق الشمس في بحر من الضياء المرسل من الشموس الأخرى المحيطة بالأرض فلا تظهر ، كما تغرق النجوم في ضوء الشمس بالنهار فلا تبدو للعين المجردة .

وهكذا نرى ان العلم كلما تقدم حمل في طيّاته الترياق المضاد لسموم الالحاد التي تصحبه ؛ وهكذا يتحقق وعد الله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم » وهكذا نرى ان القرآن الكريم لم يكن في حاجة للبرهان على وجود الله – بل ولا الفلسفة !



تذييل

بمناسبة ما دار – عرضاً – في المركز الاقليمي لتدريب كبار موظفي التعليم في الدول العربية في الدورة الطويلة لسنة ١٩٦٥ – ١٩٦٦ مما يتصل بموقف العقل من الدين ، وتعزيز ذلك بالعجز عن فهم اشياء من الدين بعضها يختص بوجود الله ، وبعضها يختص بامور اخرى كالأرث وما شاكل ذلك ، رأيت ان اضيف هذه النقاط التالية ، وان كان اكثرها سيجيء مفصلاً في الجزء الثاني من هذه السلسلة بمشيئة الله وقوته .

أولا : منهاج الدين فيما يختص بالعقيدة

لا يتأتى لمنهاج الدين في الثانوي ان يحقق الغرض المنشود منه في هذه الناحية ، ما لم يكن منبثقاً من واقع الطالب الفكري اولاً وقبل كل شيء . ان الطالب يأتي من المرحلة الابتدائية للثانوي ، وهو مؤمن بالله ايمان العجائز ؛ ولذلك فان اي محاولة لاثبات وجود الله بالبرهان بجهود ضائع ، وعبث ضرره اكثر من نفعه ؛ ان اكثر ما يحتاج اليه الطالب في هذا الخصوص هو كيف يصون هذا الايمان ، وكيف يحتفظ به قوياً ، كما جاء به ، ازاء بعض الأعاصير – الوهمية ! – التي تثيرها بعض

النظريات العلمية ؛ وعليه فحين يدرس الطالب نظرية التطور مثلاً في حصة العلوم ، ينبغي ان يدرس في حصة الدين كيف ان هذه النظرية - على فرض صحتها - لا تنفي وجود الله ، واذا قام بذلك مدرس العلوم فهذا هو المطلوب . وهكذا يساير منهاج الدين كل الامور التي تتصل بالإلهيات في سائر المواد ، خطوة ، خطوة .

وكذلك ينبغي ان يواكب منهاج الدين جميع المواد في الامور التي تتصل بالعقيدة من حيث هي .

فحين يدرس الطالب مثلاً في حصة الجغرافيا ان الشمس ثابتة ، ينبغي ان يعرف الطالب في حصة الدين - ان لم يكن في حصة الجغرافيا - ان ثبوت الشمس هنا امر نسبي ؛ لا حقيقي ، وان من يقول بخلاف ذلك جاهل بالعلم قبل الدين ، وان الدين سبق العلم في تقريره هذه الحقيقة التي اهتدى اليها العلم اخيراً وهي ان الشمس تجري لمستقر لها ، او في الرواية الأخرى الشاذة : لا مستقر لها !

وحين يدرس الطالب مثلاً في حصة التاريخ ان الثورة الفرنسية قررت حقوق الانسان ، ينبغي ان يدرس في حصة الدين - ان لم يكن في حصة التاريخ نفسها - ان الاسلام سبق الثورة الفرنسية الى ذلك ، قبل العديد من القرون ! كما ينبغي ان يشرح اصول المساواة بين الرجل والمرأة في الاسلام ، وهي اصول تقوم على طبيعة الاشياء ومتطلبات الحياة ، بخلاف المساواة المطلقة بين الجنسين ، تلك المساواة التي تكذبها طبيعة كل منهما ! وهكذا يشرح مشكلة « الرق » التي جفف الاسلام منابعها ، وكان اول مذهب شرع العتق قبل ان تحلم به المذاهب الأخرى ! وكيف ان الذين يريدون ان يمحوا الرق من الوجود يغالطون الحقائق ، فما دام هناك حرب وأسر ، لا بد ان يكون هناك رِقّ ، الا في الاسلام عندما تكون له الكلمة : فاما منا بعد واما فداء !

وكذلك حين يسمع الطالب نبأ الوصول الى القمر ، او غيره من الكواكب يجب أن يُعلَّم أن الوصول الى القمر شيء ، والوصول الى السموات امر مستحيل ، ولكن الجهل بالعلم ، والجهل بالدين معاً هما اساس كل فساد استمع الى كولمان « James A. Colman » حيث يقول :[1]

« . . . it is physically impossible for us to go beyond the limits of the observable universe, even assuming we lived long enough and had all the physical resources ef the observable universe at our disposal » .

وهنا يتفق « كولمان » هذا مع القرآن الكريم ، وما اوردته هنا من نص انجليزي لكولمان انما هو تفسير حرفي لقوله تعالى « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا .. لا تنفذون .. »

وهكذا ينبغي أن يسير منهاج الدين مع مناهج المواد الأخرى جنباً الى جنب فيصحح العقيدة على هذا الأساس الفكري السّوي ، ويصونها ويحصنها من السموم التي قد تصل اليها ، وتفتك بها ، او تؤثر فيها ، اما عن طريق الجهل بالدين ، او الجهل بالعلم ، او الجهل بالدين والعلم معاً ، كما هو الحاصل . وهذا يقودنا الى سؤال هام : من ينبغي أن يدرس الدين دعك ممن يضع مناهج الدين .

ثانياً : موقف العقل من الدين :

يجب أن نعلم أن المسيحية اذا كانت مبنية على المسائل الوجدانية وحدها ، كما يقول أهلها ، فان الاسلام خاطب العقل أولاً وقبل كل شيء .

---

(١) انظر Modern Theories of the Universe لكولمان صفحة ٧٢ فما بعدها.

ان الديانة الاسلامية – كأية ديانة سماوية أخرى – لها جانبان ، جانب يخص الفرد ، وجانب يخص الله ، وليس فيما يخص الفرد في الاسلام ما تخفى على العقل حكمته ، فمبدأ الطلاق ، مثلاً . وتعدد الطلقات والرجعات ، ووجوب الولاية في العقد حينما تكون المعقود عليها قاصرة او غير رشيدة ، وانتفاء شرط الولاية عند من يرى ذلك حين تكون المعقود عليها رشيدة او ولي امرها غير مؤتمن ، وقوامه الرجل على المرأة بسبب الانفاق ، والتفاوت بين نصيب الرجل والمرأة في الارث ، وتحريم الخمر والميسر والرباء ، كل هذه ، وغير هذه ، من الأمور التي يقرها العقل السليم ، ولا يماري في حكمتها الا مأفون أو قاصر النظر .

أما الجانب الذي يخص الله تعالى فالامر فيه يختلف بعض الشيء .. لماذا كان المغرب ثلاث ركعات والصبح ركعتين مثلاً ؟ لماذا لا يجوز الوضوء بالماء المعطر مثلاً ؟ لماذا كان الصوم المفروض في رمضان لا في أي شهر آخر ؟ كل هذه مسائل تخفى الحكمة فيها على العقل العادي ؛ لانها تخص الله من العبد ، ولا يهم العبد منها الا رفع الحرج ، ومراعاة الطاقة البشرية في مختلف الاحوال . إن المراد من هذه العبادات هو إحكام الصلة بين العبد وربه ، فمن الذي يحدد هذه الصلة ؟ ومن الذي يبين الطرق التي تنميها وتؤكدها ؟ أهو العبد المحتاج الى هذه الصلة ؟ الجاهل بما ينبغي أن تقوم عليه هذه الصلة ؟ أم هو الله ؟ إذن فالعقل السليم يقتضي الا تكون للعبد في العبادات كلمة إلا من حيث اعتبارها لوسعه ، ومراعاتها لطاقته في ظروفه المختلفة ؛ بخلاف التشريعات الأخرى التي جاءت لتكفل له السعادة في هذه الدار ، فهي كلها خاضعة للعقل ؛ لأنها كلها للعبد ؛ صحيح أن الله ليس محتاجاً الى عبادة أحد ، ولكن الحقائق تتطلب أن تكون هناك صلة بين الخالق والمخلوق ،

وعلم النفس يؤكد ما في هـذه العبادات من تأكيد لهذه الصـلة ، وتنمية لها .

أما ما يختص بالمغيبات كالجنة والنار والملائكة والجن والشياطين ، وما الى ذلك ، فماذا في العلم مما ينفيه ، وماذا في العقل مما لا يسيغه ؟ ومتى كان « الحس » شرطاً في وجود الأشياء ، حتى في العلم التجريبي نفسه ؟ ألم تظهر « البكتيريا » مثلاً في الوجود الا بعد اكتشاف باستير لها ؟ ألم يكن للجاذبية — بمعناها المفهوم الآن — وجود قبل نيوتن ؟

ان مما استوردناه من الشرور والسموم من الغرب المسيحي — باسم التحضر — أن الدين يخاطب الوجدان ، فيجب — والحالة هذه — أن ينحصر في هذا الميدان ، والا يكون للعقل معه شأن ! واذا ارتضى المسيحيون ذلك ، فلان مسيحيتهم — المشوهة — كالخفاش لا تستطيـع أن ترى النور .

ومتى كان الاسلام « خفاشاً » لا يقوى على العيش الا في الظلام ؟

أما أن الأسلام خاطب الوجدان فصحيح ؛ الا انه خاطب الوجدان عن طريق العقل ، وخاطب العقل اولاً وقبل كل شيء . واذا سلمنـا جدلاً أن في الاسلام ما لا يستطيع العلم التجريبي أن يثبته ، فهذا من عيب العلم لا من عيب الإسلام ، انما يعيب الدين أن يكون فيه ما لا يقبله العقل ، او ما لا يقره العلم ؛ هـذا ما يعيب الدين ، والإسلام من هذا العيب براء .

صبغة الله ، ومن احسن من الله صبغة ؟



فهرست

تنبيه : لم ننشأ أن نضع شيئاً بالمراجع اكتفاء بالاشارة اليها في الهوامش .